
روايات مصرية للجيب
زهور
106
وأخيرًا التقينا !
Looloo
www.dvd4arab.com
م. علي ماهر عيد

هذه السلسلة ..

عندما تتحوّل حياة الفرد منا إلى صحراء جرداء ..

وعندما تجف مشاعرنا وتستحيل إلى أغصان يابسة ..

يتوق قلب كل منا إلى الحبّ .. الحب الذى يروى هذه المشاعر .

فيعيد إلـى أوراقها الخضرة .. ويبدل صحراءها إلى بساتين مزهرة ، ورياض غناء .

إنه الحب .. الحب بمعناه الرحب : حب الحبيب .. حب الابن .. حب الأب .. حب الأم .. حب الوطن .. حب البشر ..

هذه الكلمة السحرية التى تذيب أحجار القلوب .. وتنبت الزهور اليانعة فى صخور المشاعر الصلدة ..

إنها الزهور التى ينشدها كل منا فى لحظات اليأس .. وفى لحظات الغضب .. وفى لحظات الكراهية .. وفى لحظات الجفاف .. فيشع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، لهو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

الفصل الأول

(اختطاف أحلام)

ذات ربيع فى قرية المندرة التابعة لمحافظة أسيوط كانت نسمات الصباح محملة بشذى الأزهار ..

والطبيعة تعزف لحنًا شاعريًّا ..

برعت أوركسترا العصافير فى عزفه ، وهى فرحة بعرس الربيع والفراشات تهفهف بأجنحتها الرقيقة الملونة .

وتنتقل من زهرة إلى زهرة ..

تعلقت النظرات بالفراشات ..

نظرات (أحلام) ..

ونظرات (هدى) ..

ونظرات (جابر) ..

نظرات (أحلام) منطلقة ضاحكة ..

وقلبها ممتلئ بمشاعر رقيقة نقية موشاة بالبهجة .

ونظرات (هدى) متحفزة متوثبة ..

تمتلئ بالرغبة فى الامتلاك ، ولو امتلاك إحدى الفراشات .

أما نظرات (جابر) فهى نظرات مملوءة بالود وبالرغبة فى إسعاد (أحلام) ..

وعندما ترجم (جابر) نظرات (أحلام) بأنها تحب الفراشات أسرع إلى الحقل ، وحبس أنفاسه ومد يده بحذر وخفة ، ثم فجأة أمسك الفراشة من جناحيها ..

أسرعت (أحلام) إليه فرحة ، وكذلك جرت (هدى) إليه راغبة لكنه أعطى الفراشة لـ (أحلام) التى نظرت إلى الفراشة وهى تبتسم ابتسامة كبيرة ..

ووضعت الفراشة فى راحة يدها ، وهى تنظر إليها نظرات تفيض بالإعجاب والفرح الغامض ..

طارت الفراشة ، وحطت على زهرة ، ثم نظرت الفراشة إلى (أحلام) كأنها تشكرها ..

وقفزت من زهرة إلى زهرة مشاركة فى عرس الربيع .

قالت (هدى) :

ـ هيا نصطاد بعض الفراشات .

لكن (جابر) اعترض متعللاً بالوقت ، ولم تهتم (هدى) .. واندفعت إلى الحقل .

واندفعت (أحلام) خلفها ..

واضطر (جابر) أن يجاريهما ، فهو مكلف (من قلبه) بحراسة (أحلام) ..

كانت (أحلام) تطارد فراشة وهى تضحك ، ثم حطت الفراشة على زهرة ، فوقفت (أحلام) ساكنة تتأمل ألوانها الزاهية .

ولم تكن تعرف أن الخطر يتربص بها فى هذه اللحظة ، فقد امتدت يد غادرة بمنديل ، وضغطت على أنف (أحلام) وفمها . وحاولت (أحلام) التخلص .. لكن اليد كانت قوية وضاغطة ، وعمل المخدر الموجود فى المنديل عمله .

فغابت (أحلام) عن الوعى .

وحدث نفس الشىء لـ (هدى) .

أما (جابر) فقد ضرب بقدمه ساق المعتدى ، فخففت قبضته قليلاً ، وتظاهر (جابر) بالإغماء ، وسقط أرضًا .

كان المختطفون ثلاثة (رجلاً وامرأتين) .

قامت كل امرأة بتخدير إحدى الفتاتين ، أما (جابر) فكان من نصيب الرجل .

أسرع المختطفون بوضع (أحلام) فوق حمار بعد أن غطوا وجهها .

وأسرع الحمار نحو البحر الكبير « النيل » ..

وتركوا خلفهم (هدى) ملقاة فاقدة الوعى .

أما (جابر) فإنه قد تنبه بالرغم من تظاهره بالإغماء . ونظر نحوهم ، فرأى امرأة راكبة الحمار ، وهى تحيط بذراعيها (أحلام) الراكبة أمامها ، وامرأة تسير أمام الحمار ، والرجل يسير فى الخلف ، والبندقية معلقة على كتفه .

تتبعهم (جابر) ، وهو حريص على ألا يروه ، وكان صامتا لأنه يعرف معنى وجود البندقية على كتف الرجل .

دقق (جابر) النظر فى الرجل ، وحفر ملامحه فى الذاكرة ، والتفت (جابر) لعله يرى أحدًا غير المختطفين ، ولكن الطريق كان خاليًا .

وتوقف الرجل والمرأتان عند حافة البحر الكبير .

رآهم (جابر) يفكون حبلاً كان يمسك بقارب ينتظرهم على الشط بعد أن وضعوا (أحلام) فى القارب ..

وابتعد القارب .. قاطعًا النهر إلى الضفة الأخرى .

وقلب (جابر) يصرخ لوعة .

★ ★ ★

الفصل الثانى

(المنقـــذ)

عاد (جابر) جريًا ، قطع الجسر وقلبه يتقافز فى داخله ، وتوقف عندما رأى (نبيل) « أخو هدى » كان فى طريقه للمدرسة ، استوقفه (جابر) ، وقال له وهو يلهث :

ـ خطفوا (أحلام) .

قال (نبيل) ، وهو يشعر أن شيئًا غير عادى يطرق باب حياته :

ـ (أحلام) .. مَنْ ؟

ـ (أحلام) ابنة عمك (سيف) العمدة .

ـ يا خبر !! اهدأ ، وأخبرنى بما حدث .

قص عليه (جابر) ما حدث له ولـ (أحلام) ولأخته (هدى) كان عقل (نبيل) يعمل ، وسأل (جابر) :

ـ هل تعرف شكل المختطف ؟

ـ مثل ما أعرفك .

ـ هل رأيتهم يذهبون للشط الآخر ؟

ـ نعم .

ـ معنى ذلك أنهم من (شلش) لأنها هى القرية الموجودة على الشط الآخر .

ـ وممكن أن يكونوا من (الحوطة) .. فالحوطة توجد بعد شلش .

انتظر (نبيل) ، وعقله لا يكف عن التفكير ، ثم أخذ ينظر إلى (جابر) بعمق ، وهو يتابع الأفكار فى رأسه ، وهو يشعر أن هذه الأفكار قد تحدد مستقبله بل قد تفتح أبوابًا ظنها مستحيلة .

وقال (لجابر) :

ـ هل ترغب فعلاً فى إنقاذ (أحلام) ؟

ـ أفديها بروحى .

همس (نبيل) لنفسه ، وهل هذا الفلاح يعرف هذه المعانى ؟

قال (نبيل) له :

ـ اسمع جيدًا ، يجب أن تحتفظ بما تعرف لنفسك .

قال (جابر) معترضًا :

ـ مـاذا ؟!

استمر (نبيل) فى حديثه بصوت هادئ قائلاً :

ـ لو عرف العمـدة مكان المختطـف ، واتجاهـه فسيعرف باقى الخفـراء والفلاحين ، وتحدث ضجة تكون من نتيجتها أن يقتل المختطف (أحلام) ليتخلص منها .

صاح (جابر) بلوعة حارقة :

ـ لا .

صمت (نبيل) قليلاً واستأنف حديثه :

ـ أنت غبت عن الوعى . ولم تر شيئًا .

سأل (جابر) وهو يشعر أن الأمر فوق إدراكه :

ـ ماذا يدور فى ذهنك ؟

ابتسم (نبيل) ، وقال له :

ـ سننقذها أنا .. وأنت لكن بهدوء .

استسلم (جابر) ، وسأل مستوضحًا :

ـ هل نستطيع ؟

ـ نعم وسترى .

قال (جابر) منبهرًا :

ـ الأمر لك يا أستاذ (نبيل) .

ـ والآن أين (هدى) ؟

« لم يهتم بأخته ، ولم يسأل عنها إلا بعد أن اطمأن علـى أنـى لن أتكلم . فيم يفكر هذا الشاب ؟ »

مرت هذه الخواطر فى ذهن (جـابر) ، وهـو ذاهـب مـع (نبيل) لرؤية (هدى) التى أفاقت من المخدر ، وهتفت عندما رأت أخاها (نبيل) !

عندما وصل خبر اختطاف (أحلام) إلى العمدة الحاج (سيف) امتلأ الدوار بالرجال كلهم يحملون السلاح ويعرضون المساعدة والتف الجميع حول (جابر) و(هدى) يستعيدونهما ما حدث .

ونال (جابر) كثيرًا من اللوم والتعنيف لتقصيره فى حماية بنت سيد البلد ، وصاحب الفضل على أبـى (جابر) «وهو ابن عم العمدة » والذى يعمل عملاً بسيطًا عند العمدة .

وناوش الخوف قلب العمدة خوفًا على ابنته الأثيرة لديـه التى يعتبرها ريحانة البيت ، والابتسامة المشرقة فى سماء حياته .

قـال (كمـال) ابن العمـدة الأكبر الـذى سيصبح ضابطًا بعـد سنة :

ـ لابد من إخبار الشرطة .

قال الحاج (سيف) :

ـ ماذا تقول يابنى ؟.. أنا هنـا أمثل الشرطة ، ولو علمت شرطة المركز بالأمر ، لأصبح والدك مثارًا للنقد والسخرية والاستهانة .

فسأل (شوقى) « ابنه الثانى الذى سيصبح طبيبًا بعد ثلاث سنوات » :

ـ هل توجد خصومة أو عداوة بينك وبين أى عائلة يا أبى ؟

ـ لا .

ـ إذن المختطف يريد فدية عن (أحلام) ، وهو لن يؤذيهـا إذا أخذ الفدية .

قال العمدة حائرًا ، وقلبه يتمزق :

ـ نعم .. لكن من هو المختطف ؟ وأين يقيم ؟

ـ علينا الصبر والانتظار يا أبى .

واستعاد العمدة ما حدث من (جابر) مرات ومرات و(هـدى) تؤيد (جابر) فى كل ما قال .

اختلطت الآراء ، وكثر اللغط .

وحضر (إبراهيم الخولـى) ابن عم العمـدة ووالـد (نبيـل) و(هدى) .. وأيضًا الحاج (توفيق) صديق العمدة المقرب ..

ولم تكف أم (أحلام) عن الصراخ والولولة ، وهى تنـدب ابنتها الوحيدة الحبيبة ..

وقال العمدة الحاج (سيف) :

ـ سأدفع الفدية مهما كانت قيمتها لاستعادة ريحانة القلب ، وسأحقق أحلام أى شخص يُدلى بمعلومات تؤدى لإنقاذ ابنتى الحبيبة ..

★ ★ ★

دارت الأفكار فى ذهن (نبيل) وهو فى الفراش ظلّ مسهدًا .. يراجع حياته ..

فهو ابن (لإبراهيم الخولى) ـ ابن عم العمـدة ـ الفقير الذى عطف عليه العمدة ، وجعله يعمل خوليًا فى أراضيه ..

والعمدة الحاج (سيف) رجل عطوف لكن ذلك العطف الذى يجرح مثلى ..

فهو يرسل إلىّ بملابس ابنيه المستعملة ويتباهى بابنيه الضابط (كمال) ، والدكتور (شوقى) .. أما أنا وأختـى (هـدى) .. ننحت فى الصخر ، وننتظر الإعانات وهذا الولد الأبله المدعو (جابر) .. إنه يحب العمـدة وأسرة العمـدة بدون أى حساسيات لأنه بليد .. فلاح مثلهم .. نعم فوالده لا يزيد عن كونـه عاملاً

مختصًا بتقديم الغذاء للماشية ، وهو نفسه اتجه للتعليم المتوسط ليأخذ دبلوم زراعة .. « فلاح راق يعنى » ..

وأنا يجب أن أنتهز هذه الفرصة لأنتزع حقى فى التعليم .

سأصل إلى (أحلام) وأنقذها لتكون وسيلتى فى أن أترقى لأعلى درجات العلم .. الدكتوراه .. هذا هو الأمل المنشود ، والأمنية الغالية .

وغلبه النوم .. بعد أن عذبته وأسعدته الأفكار ..

★ ★ ★

فى صباح اليوم التالى .. تهادى مركب فى النيل قاصدًا الشط الثانى حيث قرية (شلش) وكان فى قلب المركب فلاحان أو هكذا يبدوان فى (الجلابيب) الواسعة و(البلغة) والطاقية و(الصديرى) .

كان (نبيل) و(جابر) جالسين صامتين .. كل يحتفظ بسره وسر المهمة الخطيرة .

فقد أسر (جابر) لـ (نبيل) بأن اليوم .. هو يوم السوق فى قرية (شلش) ، وكل القرية ستكون فى السوق ، ولا بد أننا سنعثر على المختطف ، أو نعرف معلومات تؤدى إلى القبض عليه .

وذهب الاثنان إلى السوق ، وأخذا يتجولان عند باعة الجبن واللبن الرايب والخضار والأوانى المنزلية ..

وتفرس (جابر) فى الوجوه عند الراوى الذى كان يحكى حكاية خضرة الشريفة ..

وبحث فى الوجوه الملتفة حول الحاوى الذى يخرج الكتكوت من البيضة ..

ويخفى الأشياء بطريقة عجيبة ، ثم يظهرها عند أحد الفلاحين فيضحكون طربًا ..

وتسمر (جابر) عند قصاب .. كان الرجل هناك يشترى لحمًا .

همس (جابر) لـ (نبيل) : ها هو الرجل ..

قال (نبيل) : انتظر أنت عند هذا المقهى ، وأنا سأتتبعه لأنى أخشى أن يتعرف عليك ، ولا تترك المكان حتى أحضر ..

وتتبع (نبيل) الرجل حتى وصل إلى بيته فسأل طفلاً كان يسير :

ـ هل هذا بيت (محمد أبو أحمد) ؟

ـ لا ، هذا بيت (رشدان أبو خليل) .

كان البيت متطرفًا ، وفى مكان مميز .

غادر (نبيل) المكان بسرعة ، وذهب إلى الشط وركب قاربًا إلى قرية المندرة ..

★ ★ ★

وفى دوار العمدة ..

كـان العمـدة وولـداه والحـاج (توفيـق) وعـدد مـن الخفـراء يتداولون فى الأمر ..

ألقى (نبيل) السلام ، فرد القوم بغير اهتمام .

وقف (نبيل) أمام العمدة ، وقال له بشكل تقريرى :

ـ أنا عندى أخبار يا عمدة .

نظر الجميع إليه باهتمام شديد :

ـ قل يا (نبيل) يا ولدى .

ـ لن أقول شيئًا إلا ونحن منفردان .

ثار (كمال) « الذى سيصبح ضابطًا بعد عام » ، واعترض الحـاج (توفيق) لكن العمـدة نهض ، وأمسك بيـد (نبيـل) ، وذهب معه إلى المندرة وفى المندرة .. قال العمدة :

ـ هيا يا (نبيل) .. هات ما عندك .

ـ فى البداية هل تذكر وعدك بتحقيق الأمنيات ؟

ـ طبعًا .. كل ما تريده سأحققه لك إن شاء الله .

ـ لا أريد شيئًا سوى الالتحاق بالجامعة أنا وأختى (هدى) .

ـ طبعًا .. طبعًا .. هذا واجب علىَّ أنا عمك يا ولد .

ـ هيا هات ما عندك .

قصَّ (نبيل) حكاية خيالية من تفكيره ، وذهابه إلى (شلش) وحده والبحث فى كل مكان ، والتنصت على كل كلام .. إلى أن وصل إلى الجانى ، واسمه (رشدان أبو خليل) .. ومكان بيته بالضبط .

فرح العمدة ، وأخذ يقبل (نبيل) .

ونادى : يا خفير ....

قاطعه (نبيل) بسرعة : لا عمى لا تناد على أحد .

ـ ماذا ؟

ـ يكفى أن تتصل بعمدة (شلش) ، وتخبره بما حدث وباسم المجرم ومكانه ، فيقوم الرجل بالواجب بدون شعور أنك تتعدى عليه .

نظر العمدة إلى (نبيل) نظرة إكبار .. هذا الولد فكر فى كل شىء واتصل العمـدة بعمـدة شلش .. فتم هجوم كاسح على المجرم (رشدان أبو خليل) .. وتم إنقاذ (أحلام) ..

وردد الجميع اسْم البطل المنقذ (نبيل) ولم يذكر أحد اسم (جابر) .

★ ★ ★

الفصل الثالث

(ومرت الأيام)

كان العمدة الحاج (سيف) جالسًا يستمع لابنته الأثيرة (أحلام) والتى حكم عليها أن تترك المدرسة بعد حادث الاختطاف ..

فى هذه اللحظة الآمنة ، اندفع (نبيل) إلى العمدة ، وقال له مذكرًا :

ـ لقد حصلت على الثانوية بمجموع يؤهلنى للالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية فى القاهرة .

صمت العمدة ، وهو يتفرس فى ابن (إبراهيم الخولى) ماذا ؟ علوم سياسية ؟! الولد يريد أن يكون سفيرًا ، ماذا حدث فى الدنيا ؟!

قال العمدة : ولماذا لا تذهب إلى أسيوط ؟

وقبل أن يجيب (نبيل) الذى شعر بخيبة أمل اندفع أبوه وأمه إلى مجلس العمدة .

قال (إبراهيم الخولى) بضعف : أرجوك أن تسامحه يا عمدة ، فـ (نبيل) صغير ولا يعرف مصلحته .

ورددت الأم بصوت باك : اتوظف يا (نبيل) لتساعدنا فى المعيشة .

تدخلت (أحلام) وقالت بصوت عذب : أبى .. أرجوك .. دع (نبيل) يتعلم .

صاح (إبراهيم الخولى) معترضًا : والمصاريف ؟!

قال العمدة بأريحية : مصاريف (نبيل) و(هدى) علىَّ يا (إبراهيم) ..

عاد الألق إلى عينى (نبيل) ، وسأل برجاء :

ـ يعنى أتكل على الله ، وأقدم أوراقى إلى القاهرة ؟

قال العمدة بصوت حاسم : القاهرة .. لا .. يكفى أسيوط .

وبعد انصرافهم نظر العمدة إلى ابنته (أحلام) ، وقال لها بعطف :

ـ التعليم ضرورى لأولاد الفقراء .. أما أنتِ يا حبيبتى ، سأترك لكِ عشرين فدانًا ، وستعيشين حياة مرفهة بإذن الله ، ولا تنسى أن أباك هو العمدة سيد البلد .

★ ★ ★

التحق (نبيل) بكلية التربية قسم إنجليزى بأسيوط ، وأدرك (نبيل) أنه يشق طريقه وسط الصخور ، ولذلك لم يشارك الشباب لهوهم ، ولم يره أحد فى السينما .

وفى قاعة المحاضرات ، كان يجلس فى أول الصفـوف ويركز انتباهه ، وحواسه فى كلام الدكتور المحاضر وفى حجرته الصغيرة الواقعة فى قرية الوليدية بأسيوط كـان لا ينـام إلا بعد أن ينتهـى من فهم ما أخذه من محاضرات .

كان فى سباق مع الزمن لتحقيق أحلامه التى تطاول النجوم .

★ ★ ★

الفصل الرابع

(غرق أحلام)

انسابت مركبة الزمن لتقطع أرض أمنيات (نبيل) فظهرت نتيجة كلية التربية ، وحصل (نبيل) على الليسانس بامتياز مع مرتبة الشرف .

وقرر العمدة الحـاج (سيف) أن يقيم احتفـالاً كبيرًا يتوج بـه هذا النجاح .

فأرسل أحد رجاله بجدى ليذبحه (إبراهيم) والد (نبيل) ..

وأرسلت زوجة العمدة ثلاث زجاجات شربات ورد وثلاثة كيلوات سكر .

وسرى الخبر من كل القرية فأثار البهجة فى النفوس ، وأطلق الأمنيات من الصدور .

وبعد الغروب استقبلت (أحـلام) صديقتها (هدى) التى أتمت الشهادة الإعدادية .

ودار الحديث والهمس بين الفتاتين .

وانطلقت (هدى) تحكى لـ (أحلام) عن أخيها (نبيل) الذى سيعيَن معيدًا فى كلية التربية بأسيوط .

وهو يصر على أخذها معه لتكمل تعليمها فى أسيوط .

(هدى) تحكى عن (نبيل) ..

و(أحلام) تستزيدها ..

وكلمات (هدى) ترسم مستقبلاً ورديًا لـ (نبيل) ، وتفسح له مكانًا بين النجوم خاصة بعد أن يسافر إلى الخارج ليدرس الدكتوراه .. وقلب (أحلام) يتفتح .. كزهرة تتلقى الندى ..

شعرت (أحلام) أنهـا تخطر فـوق سحابة مذهبـة ، والفراشات الملونة تنشد أغانى سـاحرة ، و« كيوبيـد » بأجنحتـه البنفسـجية يبتسم لها مباركًا أحلامها العذبة .

وأفاقت (أحلام) على صوت (هدى) تسألها :

ـ هيا .. أتذهبين معى إلى الحفل ؟!

ـ طبعًا .. طبعًا .. لكن يجب أن أستأذن أسرتى .

ـ والدك العمدة .. سيحضر .. الجميع يعرفون ذلك .

ـ سأستأذن أمى .

وكـأن الأم اسـتمعت إلـى حـوار القلبيـن المتفتحيـن للحيـاة فابتسمت ، وقالت :

ـ اذهبى يا (أحلام) مع (هدى) ، ولكن قابلينى هناك لنعود معًا .

ثملت (أحلام) بالفرحة وكأنها حققت كل أمنياتها .

ولكنها قرأت تساؤلات فى عينى (هدى) ، فسألتها :

ـ ماذا هناك يا (هدى) ؟

ـ ماذا سترتدين للحفل ؟

ضحكت (أحلام) ، وأمسكت بيد (هدى) ، واتجهت بهـا إلـى دولاب ملابسها .

وفتحت الدولاب المكتظ بملابس ملونــة زاهيـة موشـاة بـالخرز والترتر .

وقالت (أحلام) :

ـ هيا اختارى لك رداء « فلاحى » جميلاً ، وخذيه منـى هديـة بمناسبة إتمامك للشهادة الإعدادية .

قالت (هدى) بمكر :

ـ فقط ؟!

ـ وأيضًا بمناسبة نجاح (نبيل) .

وارتدت كل منهما فستانًا ملونًا ..

ووقفت (أحلام) أمام المرآة ، وابتسمت لنفسها ، وقالت (هدى) منافقة :

ـ قمر .. زوجة أخى (نبيل) قمر الزمان .

تلون وجه (أحلام) بلون وردى خفيف .

وتكسرت نظراتها من أثر تيار مخدر انبعث فى داخلها .

وتنبهت الفتاتان على صوت الأم ، وهى تقول :

ـ هيا يا بنات إلى الحفل .

وعندما وصلت (أحلام) مع (هدى) إلى هناك كان (نبيل) وأبوه يقفان فى استقبال القادمين ..

والمغنى يرحب بالقادمين على صوت المزمار والطبل والرق ..

تقدمت (أحلام) وصافحت (نبيل) مهنئة .

وضغط (نبيل) على يدها ضغطة خفيفة أطلقت تيارًا من النشوة فى داخلها ، ورقص قلبها طربًا .

وجاء العمدة فى كوكبة من رجاله ، فأطلقت الأعيرة النارية ترحيبًا بالعمدة الحاج (سيف) .. سيد القرية ودافع تكاليف الليلة .

استقبله (إبراهيم) والد (نبيل) بترحاب وخضوع ، أما (نبيل) فإن قلبه التوى ألمًا عندما رأى الخضوع الذى أبداه والده وصافح العمدة بكبرياء .

رأت (أحلام) والدها وهو يغمر (نبيل) بالقبلات ، فشعرت كأن والدها يشارك قلبها من احتفالاته .

ووقفت (أحلام) بحيث تشاهد الحفل من بعيد .

لكنها بعد قليل وقعت نظراتها على (جابر) .

يقف صامتًا وحيدًا :

أخذ دبلوم الزراعة ولم يلتحق بعمل بعد .

التقت نظراتهما فابتسمت له ابتسامة مرحبة ، وتذكرت أيامها معه وهى طفلة .

كان يتسلق شجرة الجميز ويقدم لها ثمراته اللذيذة .

ويجمع لها التوت ويغسله ويقدمه لها .

ويحضر لها أزهار « دقن الباشا » لتشم رائحتها الذكية .

ويطارد الفراشات ويمسكها من أجلها .. ثم تطلقها هى فرحة .

ونظر (جابر) إليها وابتسم بحنان كأنه وجد من يبحث عنها ..

كانت زهرة متفتحة تنشر السعادة أينما تحل ..

تقدمت نحوه وصافحته ، فغمرته السعادة ..

وقالت له بصوت عذب :

ـ ماذا ستفعل بعد الدبلوم ؟

ـ قدّمت للقوى العاملة ، ولكنى لن أنتظر .

ـ لماذا لا تعمل عند أبى سائق جرار ؟

قال لها بصوت واثق :

ـ سأذهب إلى الإسكندرية .. لى قريب هناك يعمل سائقًا لبولدوزر .. سأساعده وأتعلم منه .

ـ متى !

ـ بعد غد .

ـ أى أنى لن أراك لفترة طويلة .

كاد أن يقول لها إنه يراها دائمًا ، فهى تسكن فى قلبه ولا يجرؤ أن يبوح بسره .

فهو يحبها كما يحب النجوم .

كم تطربه ليلى مراد وهى تغرد :

من بعيد يا حبيبى أسلم

من بعيد من غير ما اتكلم

أغنية مليئة بالحب والعذاب والطرب .. هذا ما يعتمل فى قلبه . ولم يهنأ (جابر) كثيرًا بهذه اللحظات الثملة بالسعادة والفرح فقد جاءت (هدى) صاخبة ، وصاحت محتجة :

ـ اذهب يا (جابر) ، وقف مع الرجال .

انسحب (جابر) بعد أن استأذن من (أحلام) .

وقالت (هدى) محتجة :

ـ كيف تقفين معه ؟

ـ ولِمَ لا ؟! إنه قريبى .

ـ لا .. لا .. هذا لا يصح ، وفى ماذا كان حديثكما ؟

ـ عن أيام الطفولة .. وكيف كان يجمع لى ثمار الجميز .

قالت (هدى) .. وهى ما زالت معترضة :

ـ هذا فقط جمع ثمار الجميز ؟!

ـ نعم .. هذا فقط .

ضحكت (هدى) بشكل مفاجئ ، وقالت لـ (أحلام) :

ـ ما رأيك لو أجمع لك أنا الجميز ؟

ـ كيف ؟!

ـ الجميع منشغلون ، ننسحب معًا ، ونذهب إلى شجرة الجميز الموجودة على حافة الترعة .

صادف الاقتراح هوى فى نفس (أحلام) ..

همست : هيا .

وتسللت الاثنتان إلى الترعة .

وعند شجرة الجميز أمسكت (هدى) بطوبـة وقذفت الشجرة فسقطت بعض الثمار .

أسرعت (أحلام) خلف واحدة ، وزلت قدمها .. فهوت إلـى الترعة وكان التيار شديدًا فجذبها للداخل .

وصرخت (أحلام) مستغيثة ..

وصرخت (هدى) ملتاعة :

ـ النجدة .. النجدة ..

و(أحلام) تسقط إلى القاع ..

ثم تصعد .. وتصرخ ..

و(هدى) تصرخ ..

وأيقنت (أحلام) بالهلاك ..

فصرخت صرخة يائسة ..

كأنها تودع الحياة .. للأبد ..

★ ★ ★

الفصل الخامس

(المسافر بعيدًا)

صوت القطار موسيقى شجية .. ونظرات (جابر) تمسح الأفق ، وكأنه يتساءل عن المجهول .. فقد غادر القرية ليصنع مستقبله .

لم يكن فى وداعه سوى والده .

وتذكر أمه الطيبة التى خبزت له فطيرًا مشلتتًا ليدخل به على الأسطى (أبو السعود) قريبه فى الإسكندرية .

وأثناء سير القطار تعلقت نظراته بشجرة جميز .

فابتسم متذكرًا ما حدث مع نجمته الغالية (أحلام) .

فقد رآها تنصرف من الحفل مع (هدى) ، فتتبعهما عن بُعد خوفًا على حبيبة القلب من أى مكروه .

وعندما وصل إلى شجرة الجميز سمع أصوات الاستغاثة فجرى بأقصى سرعة إليهما ، ورأى (أحلام) وهى بين يدى الحياة والموت . يد الحياة تقذف بها إلى السطح .. ويد الموت تجذبها إلى القاع .

فخلع جلبابه ، وقذف بنفسه بسرعة ، ومرق إليها كالسهم . وأمسكها بمهارة ودفعها لأعلى تشبثت به بقوة ، لكنه طلب منها أن تترك نفسها له قائلاً : تشجعى ، لا تخافى ، إن الشط قريب ، وأنا سباح ماهر .

واستطاع أن يصل بها إلى الشط سالمة .

ونظر إلى (هدى) ، وقال لها :

– ما رأيك لو تحضرين فستانًا جافًا لـ (أحلام) ؟

ونظرت (أحلام) إليها وكأنها ترجوها .

لكن (هدى) سألت (جابر) بكراهية :

– لماذا حضرت إلى هنا ؟ وماذا سيقول الناس عندما يرونك معنا ؟!

ردت (أحلام) بسرعة :

– ما هذا يا (هدى) ؟! كيف تتكلمين عن ابن عمى هكذا ؟! الواجب علينا أن نشكره لا أن نلومه .

عبس (جابر) عندما تذكر (هدى) وكلماتها .

وانفرجت أساريره عندما تذكر كلام (أحلام) ، وهو مفعم القلب بالفرح والحنين .

ولكنه ما لبث أن عبس عندما استعاد صورة (هدى) وهى تقول :

ـ الأفضل أن أذهب مع (أحلام) إلى بيتها لتستبدل ملابسها ، ثم نعود للفرح بدون أن يشعر أحد .

وقد كان .

وذهبت الفتاتان إلى بيت العمدة ، واستبدلت (أحلام) ملابسها ، وأخذت (هدى) فستانًا آخر لكى تتكتم هذه الحادثة .

وظلت صورة (أحلام) محلقة فى خيال (جابر) ، والقطار يقطع الطريق إلى الإسكندرية .

* * *

فى اليوم التالى .. بعد الغروب ..

اصطحب (إبراهيم الخولى) والد (نبيل) الحاج (توفيق) معه إلى دوار العمدة .

وقد أصاب (إبراهيم) باختياره للحاج (توفيق) .

لأن الحاج (توفيق) قريب له وللعمدة ، وهو يعمل فى تجارة الحبوب فى أسيوط وحقق مكاسب كثيرة ، وأيضًا أصبحت لـه منزلة اجتماعية مرموقة حققها بحسن أخلاقه ، ومعاملاته الصادقة مع الناس ، وحرصه الشديد على المشاركة فى المناسبات الاجتماعية فى القرية .

وبالإضافة إلى ذلك كان يستقبل أبناء القرية فى داره بأسيوط .

والأهم من كل ذلك أن الحاج (توفيق) لـه منزلـة خاصـة فى قلب العمدة الحاج (سيف) .

ولذلك فإن العمدة استقبل الحاج (توفيق) و(إبراهيم الخولى) استقبالاً حافلاً فى دواره ..

همس الحاج (توفيق) للعمدة قائلاً :

ـ محتاجك فى أمر خاص جدًا يا حاج (سيف) .

التفت العمدة حوله للخفراء ، ثم هز رأسه وقال :

ـ هيا نجلس فى « المندرة » .

ثم التفت إلى خفير وقال له :

ـ هات الشاى ، ولا تجعل أحدًا يعكر صفونا .

وتنحنح العمدة ، وهو يقوم معلنًا عن سلطاته وهيبته .

وفى المندرة ، وبعد شرب الشاى ، وضمان الخلوة ..

قال الحاج (توفيق) بأسارير منفرجة ، وصوت فرح يقطر طيبة وصفاء :

ـ اسمع يا حاج (سيف) ، أنت ربّيت (نبيل) وعلّمته ، وكان لك أيدٍ بيضاء عليه وعلى أسرته .

تنحنح الحاج (سيف) ، وقال مفتعلاً التواضع :

ـ أستغفر الله يا حاج نحن أهل .

ابتسم الحاج (توفيق) ولمعت عيناه بالسرور وهو يقول :

ـ لكى نكون أهلاً وتتوثق الصلة .. فإبراهيم ابن عمك يطلب يد (أحلام) لابنه (نبيل) .

تنحنح العمدة وصمت ، حتى خاف (إبراهيم) ..

وقال الحاج (توفيق) برجاء :

ـ لعلنا لم نتجاوز يا حضرة العمدة .

خرج العمدة من صمته ، وقال :

ـ ليس هناك تجاوز ، نحن أهل ، و(إبراهيم) ابن عمى ، لكن الأمر يحتاج مشاورة ابنى الضابط (كمال) وابنى الدكتور (شوقى) .

قال الحاج (توفيق) متشجعًا :

ـ أنت الخير والبركة يا عمدة ، ولا تنس أن (نبيل) سيكون دكتورًا فى الجامعة ، وربما يصبح وزيرًا .

انتفخت أوداج (إبراهيم) ، ولمع السرور فى عينيه .

ولاحظ الحاج (توفيق) أن العمدة قد داخله الكدر من جملته الأخيرة ، فأسرع بالقول :

ـ يا عمدة أنا أعرف أن العين لاتعلو عن الحاجب ، وأن الضابط (كمال) ممكن أن يصير وزيرًا للداخلية فهو ابن حسب ونسب ، وكذلك الدكتور (شوقى) وزيرًا للصحة .

فما المانع فى أن تضم للعائلة وزير التربية والتعليم .

ارتاحت نفس العمدة لهذا الكلام ، فضحك راضيًا وضحك الحاضران وبالرغم من أن العمدة كان يسعى لهذا الأمر .. « أمر زواج (نبيل) من (أحلام) » فإنه قال :

ـ سأستشير أولادى ، ونتقابل بعد أسبوع لقراءة الفاتحة والاتفاق ، وربنا يقدم ما فيه الخير .

★ ★ ★

اعترض الضابط (كمــال) ، وتكلم عن الحسب والنسب لكن الأب استطاع إقناعـه ، أمـا (شوقى) فلـم يسأله أحـد لطبيعتـه المسالمة ..

وفى الميعاد المحدد حضر (نبيل) مع أبيه والحاج (توفيق) .

وأولم لهم العمدة وليمة واحتفى بهم .

واتفقوا على قراءة الفاتحـة ، وألا يتـم الزواج إلا بعد سنتين على الأقل .

تكون (أحلام) وصلت إلى مرحلة الشباب .

وكذلك (نبيل) يكون قد هيأ المنزل المناسـب فـى أسـيوط وانطلقت زغرودة ..

رنت فى أذن (أحلام) رنينا غريبًا .

وهاجمتها مشاعر متناقضة بين الفرح والحزن ..

وفى أعمق الأعماق ..

بكى شىء لا تعرف كنهه ..

★ ★ ★

الفصل السادس

(قلق أحلام)

كانت (أحلام) تحيك رداء « فلاحى » لتضيفه إلى المجموعـة التى فصّلتها بنفسها ؛ لأنها أتقنت هذا الفن بفضل خياطـة تعمل فى القرية ، وبفضل المجـلات المتخصصـة ، وكتـب فـن التفصيل التى اشتراها أخوها الدكتور (شوقى) لها .

وصوت (عبد الحليم حافظ) ينطلق من مذياع بجانبها بصوت دافئ يثير ألوانًا زاهية فى داخلها ، ويحملها فوق سحابة فتشعر كأنها كائن أثيرى يسبح فى عالم وردى .

عندما اقتحمت (هدى) خلوتها .

تعانقت الفتاتان ، وكل منهما تنظر للأخرى متطلعة .

رأتهـا (هـدى) بعين متعاليـة ، فهـى لا تـرى أمامهــا سـوى فلاحة تلبس ملابس الفلاحات ، وحظها من التعليم قليل .

حقًا إنها جميلة .. ورقيقـة .. وشـاعرية .. وثريـة .. وأبوهـا عمدة .. لكنها لا تصلح زوجة لدكتور جامعى .

أما (أحلام) فقد رأت (هدى) بعين راضية .

فإنها رأت (هدى) فتاة مدنية تلبس فستانا يوضح تضاريس جسدها الفائر .

كما أنها عروس جميلة مثقفة وتعيش فى أسيوط .

وعادت الفتاتان إلى العناق ثم جلستا ، وقالت (أحلام) بصوت عذب :

ـ احكى لى يا (هدى) عن حياتك فى أسيوط .

وقصت (هدى) بعض الذكريات الضاحكـة ، وكـل حديثهـا انتقادات لتصرف زميلاتها ، ونكش فى العيوب .

و(أحلام) تضحك بدهشة من هـذا العالم الغريب الـذى تحكـى عنه (هدى) ..

واكتسى وجه (أحلام) بجدية ، وسألت :

ـ هل ستمكثين معنا طوال الإجازات الصيفية ؟

أجابت (هدى) بتلقائية :

ـ حتى ظهـور نتيجـة الثانويـة ، ثم أسـافر إلـى أخـى (نبيل) لأقدم أوراقى لكلية التربية .

غمغمت (أحلام) : (نبيل) ؟!

تنبهت (هدى) ، فقالت ضاحكة :

ـ إنه هنا يجلس فى الدوار مع أبيك .

سألت (أحلام) بحـزن :

ـ كم يوما سيمكث ؟

ـ سيغادر غدًا .

غرقت (أحلام) فى خيالات متضاربـة عن (نبيل) ؛ فطـوال ثلاث سنوات لم يحضر لها هديـة واحدة ولـم يحـرص أبدًا على رؤيتها .

ويأتى فى الإجازة الصيفية ليحضر (هدى) ، ثم يفر عـائدًا إلى أسيوط كأنه يهرب .

ألا يعرف هذا المتعلم أن الإهمال يذبح الأنثى ؟!

وحاولت (أحلام) السيطرة على انفعالاتها .

رأت (هـدى) مـا ألـمّ (بأحـلام) ، فحـاولت استدراجها إلــى موضوع آخر .

فقالت لها مبتسمة :

ـ ما رأيك لو نذهب لنستمع لحديث العمدة مع أخى الدكتور (نبيل) ؟!

نظرت (أحلام) إليها مستنكرة .

قالت (هدى) باستهانة :

ـ لماذا تستنكرين ؟ هذا نوع من التسلية ، إذا لم يعجبك الأمر ، فأرسلى إحدى فلاحاتك لتستمع وتنقل إلينا ما يدور .

★ ★ ★

وفى الدوار كان (نبيل) يجلس صامتًا ، وهو مرتدِ القميص والبنطلون وينظر إلى الفلاحين بفتور ، ثم يعود إلى صمت عميق .

كأنه يصنع حدودًا وأسوارًا تمنع الآخرين من الاقتراب منه وتأمله العمدة مغتاظًا ، وقرر اقتحامه ليهدئ مشاعره الثائرة فسأله :

ـ متى ستعقد قرانك يا (نبيل) ؟!

ظهر الامتعاض على وجه (نبيل) ، فلم يعجبه أن يخاطبه العمدة بدون ألقاب .

فقال بصوت يخرج من الحلق ، وفيه كثير من الادعاء :

ـ إن عملنا الآن غير مستقر ، فأنا مشغول دائمًا فى التحضير للماجستير ، وسأناقشها قريبًا ، وأيضًا مشغول فى التدريس للطلاب ، وبعد ذلك سأسافر إلى الخارج لدراسة الدكتوراه فى اللغة الإنجليزية ، وبعدها من الممكن عقد القران امتلأ صدر العمدة بمشاعر عدائية .

بل أصبحت المشاعر تزحم صدره وتهدد بالانفجار ..

صمت العمدة فى محاولة لترويض نفسه ، وهو يفكر أن هذا الولد يراوغه ..

وفكر جديًا فى صفعه وطرده ، وطرد والده ولكنه تماسك وسأل فى محاولة أخيرة :

ـ ومتى ستنتهى من هذه الدكتوراه ؟

ـ خمس سنوات على الأقل .

وبدأ الحوار بينهما يأخذ شكل المبارزة ، فقال العمدة :

ـ لكن (أحلام) ...

قاطعه (نبيل) بسرعة :

ـ (أحلام) ما زالت صغيرة .

قال العمدة مستهجنًا :

ـ (أحلام) بلغت الثامنة عشرة ، وكثيرات تزوجن أصغر منها .

قال (نبيل) بهدوء :

ـ خطأ .. العلم الحديث ينصحنا بزواج البنت بعد الخامسة والعشرين حتى تكون متكاملة نفسيًا وجسديًا .

بدأ الانفعال يغزو صوت العمدة :

ـ هل تظن أنك الوحيد الذى درست ؟!

ابنى الدكتور (شوقى) هو الذى درس العلم الحديث .

تذرّع (نبيل) بالصبر والصمت ، ورأى أن يهدئ من ثورة العمدة قبل أن ينصرف ، فقال :

ـ يا عمى .. الزواج يحتاج إلى استعدادات مالية كبيرة غير متوفرة لى الآن ، فكل راتبى أنفقه على المعيشة وعلى تحضير الماجستير ، ولابد من الصبر .

وانصرف (نبيل) تاركًا العمدة على حافة الانفجار .

★ ★ ★

واستدعى العمدة (إبراهيم الخولى) إلى الدوار وسرد له ما حدث وهو غاضب .

قال (إبراهيم) بضعف ورجاء :

ـ الأمر أمرك يا عمدة ، ولا أحد يستطيع أن يعصى لك أمرًا .

أدرك العمدة أنه لا حل عند (إبراهيم) ، فتركه ينصرف على أن يتشاور فى الأمر مع ابنيه الضابط (كمال) والدكتور (شوقى) .

★ ★ ★

وسافر العمدة إلى أسيوط إلى ولديه وهو محمل بخيرات الريف وجلس مع ابنه (كمال) فى الصالون .

وما أن فتح الموضوع حتى ثار (كمال) وأعلن سخطه وتبرمه من (نبيل) هذا ، ورأى أن يسعى العمدة لتزويجها بابن أحد أثرياء الريف .

أما الدكتور (شوقى) فكان أكثر هدوءًا .

بل والعجيب أنه كان متفقًا مع (نبيل) فى أن (أحلام) ما زالت صغيرة وأن (نبيل) لم يستقر بعد .

ومن الأفضل الانتظار حتى يأخذ (نبيل) الماجستير ، وتبلغ (أحلام) العمر المناسب .

قال العمدة ، وقد شعر أن هذا الكلام قد هدأ من غضبه :

ـ يا بنى ، مر ثلاث سنوات على قراءة الفاتحـة ، ولـم يظهـر هذا الولد أى نوع من الجدية فى الأمر .

قال (شوقى) :

ـ اسمع يا أبى إذا جـاءك عريس ملائم لـ (أحـلام) فزوجهـا على بركة الله ، ومن السهل علينا التحلل من هـذا النبيـل أمـا إذا لم ... ، فليس أمامنا غير الانتظار .

قال العمدة وقد شعر براحة ما :

ـ هذا هو الرأى .

★ ★ ★

أما (أحـلام) فإنهـا رأت أن تستثمر وقتهـا ، وأن تعمـل شـيئًا مفيـدًا .

فبجانب انهماكها فـى التفصيل والتطريز ، فإنهـا تقضـى وقتًـا طويلاً فى الحديقة تعتنى بأشجار البرتقال ، وعملت حوضًا كبيرًا للأزهار ، بل وفكرت فى أن تربى النحل على هذه الأزهار .

حدثت والدها فى الأمر ، فنظر إليها متألمًا ومتأسفًا .

وقد علل الأمـر بأن (أحـلام) تهـرب من القلق بالانغماس فى أى عمل .

وعندما يراها تمسك بيد « الطلمبة » ترفعها وتخفضها يقول لها بحزن :

ـ دعى إحدى الفلاحات تقوم بذلك .

ولكنها لا تبالى ، فهى تحب العمل ..

وزرعت حوضًا بالجرجير والخس .

كانت أجمل أوقاتها تقضيها فى الحديقة .

وتطارد الفراشات ضاحكة .

ولم تنجح أبدًا فى الإمساك بواحدة ..

وذات مرة أعجبت بفراشة ذات ألوان ذاهيـة ، وطاردتهـا مـن مكان إلى مكان بدون جدوى .

فصاحت بدون وعى : أين أنت يا (جابر) ؟!

ـ أنا هنا يا ابنة عمى .

وأمسك (جـابر) الفراشـة ، وقدمهـا لهـا ، وكأنـه يعيد إليهـا أيامها الجميلة ، وكأنه يمسح الكدر عن كل لحظاتها .

كأنه نسمة وسط الهجير ..

زغردت الفرحـة فـى صدرهـا ، واحمـر وجههـا حمـرة خفيفـة محببة وأطل الشوق من العيون ..

فصاحت بود عميق :

ـ (جابر) ؟!

ـ نعم يا بنت عمى .

وقبل أن يهنأ الاثنـان بلحظـة اللقـاء الغريبـة الثملـة بالأشـواق جاءهما صوت غليظ ثاقب كطلقة رصاص على عصفورين ..

قال الصوت : من معك يا (أحلام) ؟!

كان والدها العمدة الحاج (سيف) .

جرى (جابر) نحو العمدة ، وسلم عليه مبديًا الود والخضوع قائلاً :

ـ أنا (جابر) .. كيف حالك يا عمى ؟

ـ متى جئت ؟!

ـ الآن .. فى هذه اللحظة ، فقد جئت من الإسكندرية ورأيت أن أسلم على كبير العائلة وأسرته أولاً .

قال العمدة بتحفظ :

ـ أهلاً بك ، تعال معى .

ونظر العمدة إلى (أحلام) ، وقال :

ـ اصعدى إلى فوق ، وأرسلى الشاى إلى الدوار .

واصطحـب العمـدة (جـابر) إلـى الـدوار ، وسـأله عن عملـه أجابه (جابر) ، وهو يبتسم :

ـ اليوم أنا سائق معدات ثقيلة فى شركة مقاولات كبيرة .

ـ كم أجرك فى الشهر ؟

ذكر (جابر) رقمًا أذهل العمدة ..

وابتسـم العمـدة سـاخرًا ، وقـال لنفسـه : « الولد يكذب ليكبر نفسه » ..

والتفت العمدة إلى (جابر) ، وقال له :

ـ هذا شىء ممتاز ، وعليك أن تكون حريصًا ، وتشترى أرضًا وتبنى منزلا .

وانصرف (جابر) ، وهـو سعيد لأنـه رأى (أحـلام) وأمسك الفراشة لها .

وفى الأيام التالية من إجازته أرسلت (أحلام) إليه طالبة شراء خلايا نحل لها .

فى خلال أسبوع قام (جابر) بشراء الخلايا .. وأقامها فى الحديقة « البيوت الخشبية والنحل بأنواعه .. »

كما اشترى لها قناعًا و(جوانتى) وحذاء خاصًا ..

وشرح لها طريقة معاملة الخلايا ..

وفرحت (أحلام) كثيرًا ..

وشعرت بالامتنان لـ (جابر) ..

الذى مكث عدة أيام فى القرية ..

أيام مترعة بالهناء والسعادة والرضا ..

ثم سافر عائدًا إلى الإسكندرية ..

وقد ترك خيالات غامضة فى صدر (أحلام) ..

★ ★ ★

الفصل السابع

(أفراح ... ولكن)

اقتنع العمدة الحاج (سيف) بكلام ابنه الضابط (كمال) ، واشترى قطعة أرض فى أسيوط بمساعدة صديقه الحاج (توفيق) .

واتفق مع مقاول على أن يبنى له عمارة من ثلاثة أدوار .

(كمـال) له دور ..

و(شوقى) له دور ..

و (أحلام) لها دور ..

وكل دور عبارة عن شقة واحدة متسعة .

وأصبح هذا حلم العمدة ..

أن يرى أولاده الثلاثة متجمعين يظلهم بيت واحد .

وأصبح العمدة يذهب كثيرًا إلى أسيوط .

وهذا ترك حرية كبيرة لـ (أحلام) لتعتنى بالحديقة وبخلايا النحل وأشجار البرتقال ، وتقضى الباقى من الوقت فى حياكة الملابس وتطريز المفارش .

★ ★ ★

طلب العمدة من ابنه الدكتور (شوقى) أن يحضر لـه (نبيل) ، فتعلل (شوقى) بالمستشفى والعمل المستمر .

ولم يجرؤ على أن يحدث ابنه الضابط (كمال) فى هذا الأمر .

فلم يجد أمامه إلا الحاج (توفيق) الذى اصطحبه إلى هناك بعد أخذ العنوان من (شوقى) .

رن الجرس ، فخرجت له فتاة خمرية اللون حسناء ، وصاحت فرحة :

ـ أهلاً يا عمى .

ـ كيف حالك يا (هدى) ؟

أجلستهما (هدى) فى صالون أنيق .

ولاحظ العمدة أن الشقة مفروشة بأثاث متوسط لكنه مريح والشقة نظيفة .

سأل العمدة ، وهو نافد الصبر :

ـ أين (نبيل) ؟!

قالت (هدى) وهى تقدم لهما مشروبًا :

ـ الدكتور (نبيل) فى الجامعة لم يحضر بعد ، وهو لا يحضر إلا فى وقت متأخر .

سأل الحاج (توفيق) مستوضحًا :

ـ هل أصبح (نبيل) دكتورًا ؟

قالت (هدى) ، وهى تجلس فى مواجهتهما بثقة زائدة :

ـ فى هذا العام سيناقش رسالة الماجستير .

قال الحاج (توفيق) بسماحة :

ـ بسم الله ما شاء الله ، وأنتِ ما أخبارك يا (هدى) ؟

ـ طالبة فى كلية التربية .

ـ بسم الله ما شاء الله .

شعر العمدة بألم خفيف ، وتمنى لو كان ترك (أحلام) تتعلم ، فالبنت طيبة ومجاهدة ، وقد نجحت فى إقامة خلايا النحل ، وفى رعاية الحديقة ، وأيضًا تفصيل الملابس .

عقلها ممتاز ، وأنا حكمت عليها بالجهل ، ويجب أن أعوضها .

ثم نظر العمدة إلى (هدى) ، وقال لها بأسلوب باتر :

ـ اسمعى يابنتى ، يجب أن يتصل بى (نبيل) إما فى العمارة التى أبنيها ، أو عند عمك الحاج (توفيق) فى المساء ، وانصرف الاثنان .

العمدة يشعر بضيق وأسف لحال (أحلام) ..

والحاج (توفيق) يهون له الأمر ..

فى اليوم التالى ، توقفت سيارة أمام العمارة ، ونزل منها (نبيل) وصافح العمدة الذى كان يجلس على كرسى أمام العمارة يتابع البناء ، ويلقى الأوامر ..

طلب العمدة كرسيًا لـ (نبيل) ، ولكن (نبيل) اعتذر قائلاً :

ـ آسف يا عمى ، فلا وقت لدى ، لأن أمامى محاضرة بعد ربع ساعة .

ـ ما رأيك لو تأتى لى فى المساء عند عمك الحاج (توفيق) .

قال (نبيل) بصوت محايد :

ـ أخشى ألا يكون هذا متاحًا .

فى هذا الوقت كانت عينا العمدة تلاحظان السيارة ، وسأل (نبيل) :

ـ هل هذه سيارتك ؟

ـ لا .

صعد السؤال المنتظر الملح من الأعماق إلى السطح ، فسأل العمدة :

ـ اسمع يا (نبيل) .. متى ستتزوج (أحلام) ؟

ـ سأنتهى قريبًا من مناقشة الماجستير ، وبعدها نتحدث .

ـ أريد رأيًا قاطعًا .

ـ بعد الماجستير يا عمى .

ونظر (نبيل) فى الساعة ، وقال :

ـ آسف يا عمى ، يجب أن أنصرف فورًا .

وتحركت السيارة مبتعدة بسرعة ..

والعمدة ينظر إليها بقلق ..

★ ★ ★

وانشغل العمدة فى أمر تزويج ابنه الدكتور (شوقى) من زميلة طبيبة مثله بنت أحد أثرياء منفلوط .

أقام العمدة فرحًا كبيرًا ، وحضر (نبيل) .

لاحظ الجميع أن العمدة قد بالغ كثيرًا فـى الإنفـاق على الفرح الذى أصر على إقامته فـى قريتـه ، وأمر بذبـح عجلين . وغنـى شفيق جلال :

الليلة دى من غير عزومة نتعزم

ورد الفلاحون ضاحكين : أيوه .. أيوه أيوه ..

وأطلق (محمد طه) مواويله التى وجدت صدى عند الفلاحين ، احتفلت القرية احتفالاً كبيرًا ..

رقصت الفلاحات ، وزغردن ، وانطلقت الأعيرة النارية .

وكانت ليلة شعر فيها العمدة أنه حقق كل أمانيه .

لا ... ما زالت أمنية واحدة ..

أمنية تخص ريحانة المنزل ..

وحبيبة القلب ..

لن يهدأ ويستقر حتى تتزوج (أحلام) ..

★ ★ ★

وفى اليوم التالى ، استدعى العمـدة (إبراهيم الخولـى) وابنـه (نبيل) واستقبلهما فى المندرة ..

وطلب عدم الدخول إليه مهما كان الأمر .

ونظر العمدة إلى (إبراهيم) ، وقال له بصوت مشحون بالغضب :

ـ يا (إبراهيم) مرت أربع سنوات ، والبنت فى انتظاركم .

ماذا حدث فى الدنيا ؟!

أنا أريد حلاً نهائيًا ..

وهو حل واحد .. عقد القران الآن ..

ولو كنا أنصفنا لكانت تزوجت (أحلام) مع أخيها الدكتور (شوقى) .

قال (إبراهيم) بضعف :

ـ الأمر أمرك يا عمدة .

قال العمدة بتصميم قاطع يحمل إنذارًا نهائيًا :

ـ أنا قلت أمرى ، وفى انتظار سماع (نبيل) .

قال (نبيل) بهدوء غريب :

ـ ليس معى أى نقود ، كل مرتبى صرفته على الماجستير .

قال العمدة ، وهو يحاصره :

ـ وهأنت قد حصلت عليها .

قال (نبيل) بهدوء يصل إلى حد البرود :

ـ نعم لكنى ما زلت فى البداية .

قال العمدة ، وهو يسد المنافذ أمام (نبيل) :

ـ سأدفع أنا كل التكاليف .

شعر (إبراهيم) بالضعف والحصار وتمنى لو هرب من هذا الموقف ..

أما (نبيل) فقد قال بصفاقة عجيبة :

ـ تكاليف ماذا بالضبط ؟

ـ تكاليف الزواج ، وكل شىء .

ـ نفترض أن هذا تم ، وبعدها بشهر سافرت إلى الخـارج ، فماذا سيحدث ؟

ـ تأخذ زوجتك معك .

ـ هل هذا معقول يا عمى ؟! فى بـلاد الغربـة سـأكون مشـغولاً فى دراسة الدكتوراه ، وأخرج صباحًا ولا أعود إلا مساء ، فمـاذا تفعل هى وحدها وسط الأجانب ؟!

شعر العمدة بضيق شديد بالرغم من كـلام (نبيل) المنطقى ، فقال له :

ـ وماذا ترى أنت ؟

ـ الرأى أن نعقد القران ، ولا يتم الزواج إلا بعد الانتهـاء من الدكتوراه .

قال (إبراهيم الخولى) : ولمـاذا لا تـتزوج الآن ؟ وإذا ذهبت للخارج تنتظرك هى هنا .

صمت العمدة ، وقد شعر أنه يمسك الفراغ بيده ، وقال :

ـ غدًا سنكمل حديثنا .

★ ★ ★

واجتمع العمدة مع ابنـه الضـابط (كمـال) وسـأله المشـورة ، وتحـدث (كمـال) بعصبية ، وطلب عدم إتمـام أى شىء ، وطرد (إبراهيـم) مـن الأرض ، وأخـذ كمبيالـة عليـه بالمصـاريف التـى دفعها العمدة فى تعليم (نبيل) و(هدى) .

رفض العمدة منطق ابنه .

وتحدث العمدة مع صديق عمره الحاج (توفيق) .

فأشار عليه أن يعقد القران ، ولا يتم الزفاف حتى يعود (نبيل) من الخارج ، على أن يكون مؤخر الصداق مبلغًا كبيرًا لا يجعل (نبيل) يفكر فى الطلاق .

استحسن العمدة هذا الأمر ..

وقرر أن يعقد قران (أحلام) و(نبيل) فورًا .

★ ★ ★

وعاشت القرية يومًا حافلاً آخر ..

دفع العمدة كل تكاليفه .

بل ودفع نقودًا للعريس ليظهر بالمظهر اللائق ، ويقدم الهدايا ويشترى الشبكة .

وذهل (نبيل) من رقم مؤخر الصداق الذى نطق به العمدة .

ودونه المأذون ..

وشعر أن القيد قد أحكم عليه .

وجاءت البعثة بعد شهر واحد من عقد القران فسافر دون أن يودّع أحدًا ..

وعندما عرفت (أحلام) بأن (نبيل) سافر إلى الخارج بدون وداع انقبض قلبها ، وتكاثفت سُحب الغموض فى صدرها .

لكنها تماسكت ، ولم تظهر أى ضيق أمام الآخرين .

وأغرقت وسادتها بالدموع وهى تضربها بقوة .

العمدة أيضًا انقبض قلبه من تصرف هذا الجاحد .

لكنه كان مطمئنًا بشكل أو بآخر .

وسافر العمدة إلى أسيوط ، ونظر إلى عمارته بفخر .

الدور الأول متروك لـ (أحلام) ..

الدور الثانى لابنه الدكتور (شوقى) وزوجته الدكتورة (ليلى) .

الدور الثالث لابنه الضابط (كمال) وزوجته التى تعمل باحثة قانونية .

وبرغمه توقفت نظراته على الدور الأول الخالى « دور (أحلام) » وهو لا يجد راحته إلا عند صديق عمره الحاج (توفيق) .

ذهب إليه ، ورحب به الحاج (توفيق) كثيرًا .

وتبادلا الحديث ..

قال العمدة :

ـ الحمد للـه .. قمت بدورى كـاملاً .. حتـى (أحـلام) عقدت قرانها وزوجها سيعود دكتورًا كبيرًا .. وقد يصبح وزيرًا ..

وفجأة صمت العمدة ..

وانكفأ على المقعد واقترب منه الحاج (توفيق) مذعورًا ..

قال العمدة له : وصيتك (أحلام) .

والدموع تتساقط من عينيه دموع هى عصارة قلب يحتضر .

ونطق العمدة الشهادتين ، ثم فاضت روحه وهو حزين .

عندما وصل النبأ إلى (أحلام) صرخت ..

وشعرت أنها تسقط فى هوة عميقة ..

هوة لا نهاية لها .

* * *

الفصل الثامن

(سنوات الأحزان)

لبست (أحلام) ملابس الحداد .. إعلانًا ليتم القلب .. وانكسار الجناح ..

تسلل السأم إلى روحها ، فجفف فيها ينابيع الحيوية .

أصبحت تسير كأنها منومة ..

هاجمها الصداع بقسوة .

وأقامت مأتمًا دائمًا فى قلبها ..

وفى وحدتها تفيض دموعها خوفًا من المجهول .

لاحظت أمها ما حلّ بابنتها ، وشاركتها أحزانها .

وطلبت معونة ابنها الدكتور (شوقى) فى التخفيف من آلام (أحلام) .

وحـاول (شـوقى) استضافة (أحـلام) فـى أسـيوط ، لكنهـا رفضت بإصرار .

وتمخضت الأيام عن حركة بسيطة عمقت من أحزان (أحلام) .

فقد جاءت رسالة من (نبيل) إلـى أبيـه (إبراهيم) بعد أكثر من أربعة شهور .

وجاء أبوه عند الغروب بالرسالة .

قرأتها (أحلام) ..

(نبيل) يتحدث عن لندن وجمال لندن وروعة لنـدن ، والعالم الغريب النظيف المتقدم الذى يعيش فيه منبهرًا .

لم يذكر كلمة واحدة عنها .

أعطت الرسالة لعمهـا (إبراهيم) ، وهـى صامتـة تمامًا ، كل ما فيها صامت ، عيناها فقط تتكلمان ..

كلامًا كثيرًا بليغًا يحتاج إلى رهافة نفس لقراءته ..

وهمست : عم (إبراهيـم) .. الدكتـور (نبيـل) بخير وسعيد فى الغربة .

سألها الرجل بطيبة :

ـ هذا فقط ؟

ـ وماذا تريد منه ؟

ـ لا شىء .

وقالت كأنها تعتذر عنه :

ـ من الواضح أنه مشغول جدًا بتحضير الدكتوراه .

وهمست « لدرجة أنـه نسـى أن يرسـل سلامه إلـى زوجتـه »

سألها عم (إبراهيم) :

ـ هل سترسلين إليه ؟

ـ البنت فى بلدنا لا تكتب يا عم (إبراهيم) .. اكتب أنت إليه .

ـ أنا لا أعرف ، و(هدى) فـى أسيوط ، لمـاذا لا تكتبين أنتِ على لسانى ؟!

وافقت ، وكتبت الرسالة ، والرجل بجانبها يقول لها :

ـ اكتبى له « عمك العمدة ربنا افتكره »

تماوجت المشاعر الحزينة فى قلب (أحلام) ، فارتعشت يدها ..

ولمعت قطرات من الدموع فى عينيها ..

وتوقفت يدها عن الكتابة ..

سألها الرجل بسذاجة : ماذا بكِ ؟!

وكأنه بكلماته أزال الحاجز أمام نهر الدموع ، فانهمرت بغزارة .

ذهل عم (إبراهيم) ، وأسرع لإحضار كوب ماء ، وهو يغمغـم بكلمات مختلطة .

وفى هذه اللحظة حضـرت الأم ، وثـارت فـى وجـه (إبراهيم) ولعنته هو وابنه .

وخاف الرجل وتجمد فى مكانه ..

لكن (أحلام) أخذت تهون الأمر عليـه ، وطلبت مـن أمهـا الصمت .

وقالت من خلال دموعها :

ـ عم (إبراهيم) لا يقصد شيئًا ، فقط غلبنى الحنين .

واعتذر الرجل مرات ومرات وهرول منصرفًا .

ثم عادت (أحلام) إلى أحزانها .. فـى أيامهـا التاليـة والحـزن مثل الوباء يحتاج إلى العزلة ..

ولذلك حاولت الأم إخراجها من عزلتها ، فقالت لها :

ـ لقد أهملت حديقتك يا (أحلام) .. اذهبـى لتريهـا ، وأرسـلى فى استدعاء من يصلحها لكِ .

« ومن يصلح قلبى يا أماه ؟! »

أكثر من نصف عام مر ، وهى فى حزن متصل ..

ورأت نسيج العنكبوت كثيرًا على أوراق الشجر ..

واتشحت الأشجار بغلالات من الأتربة ..

وخلايا النحل لم ينظفها أحد ..

والأرض جافة عابسة متشققة ..

الأزهار جفّت وتساقطت ..

لم تزدهر فى الحديقة أى أزهار ، سوى أزهار الحزن ..

ازدحمت الآهات فى صدرها .. وشعرت بضعف شديد ..

ورأت أن تعود إلى حجرتها ، فالحزن كثيـف .. والقلـب كسير .. والروح صدئة .. والضعف يسرى فى الأوصال ..

أعطت ظهرها للحديقة ..

وسارت منومة لتدفع الباب الذى يفصل بين الحديقة والـدار .. ومن بعيد من تهاويم الحلم سمعت صوتًا :

ـ (أحلام) ..

من ينادى إنه صوته .. هو ..

هو دائمًا بوجهه الطيب .. (جابر) .. أين كنت ؟

التفتت إليه .. رأته خيالاً من خلال غلالة الدموع ..

نادت لتتأكد :

ـ (جابر) .

ـ كيف حالك يا بنت عمى ؟

كاد أن يقول لها :

يا حبـة القلـب

يا تـوءم الـروح

يـا غـذاء النفس

لكن كيف يقولهـا وهـو يعـرف أنهـا زوجـة الدكتـور (نبيـل) ابن عمه ؟!

يكفيـه فقط أن يراهـا .. أن يطمئـن عليهـا .. أن تكون (أحـلام) فى أمان .. تكون الدنيا جميلة ..

ـ (جابر) .

ظهر الفرح من بين براثن الحزن .. ارتعش قلبها .. حياة .. إن الحياة تسرى فى جسدها .

ـ أين كنت ؟! ومتى أتيت ؟! ألم تعرف أن عمك العمدة مات ؟!

ـ كفى يا (أحلام) ، إنى أعرف كل شىء ، وقد حضرت وقتها ومكثت ثلاثة أيام هنا ، ثم سافرت للعمل ، وأنا فى إجازة حاليًا لمدة أسبوعين .

هتفت فرحة : أسبوعان ؟!

فقد شعرت أن الله لم ينس نصيبها من السعادة ..

رأت نظراته تمسح الحديقة ..

فقالت بحزن شاعرى :

ـ انتشر البلى فى كـل مكـان ، وهجـرت الفراشـات الحديقة وعشش العنكبوت .

نظر إلى حوض الورد ..

فقالت بنفس الصوت الشاحب كأنه خطرات نفس عليلة :

ـ جفّت الورود .

أسرع (جابر) إلى الفأس ، وقلب الأرض ، ونقى الأرض من الحشائش الضارة .

وأخذ يدفـع بيد الطلمبـة ، والميـاه تتدفـق ، والأرض فرحـة تمتص المياه مرتعشة بالحياة .

قال لها :

ـ سآتى خلال الأسبوعين لأعيد للحديقة رونقها .

كادت تهمس له :

« وأيضًا تحيى للقلب أزهاره .. »

طلب (جابر) الإذن للسلام على أم (أحلام) .

قابلته المرأة بترحاب ، وكأنــه روائـح الحيـاة القديمـة .. حيـاة العز والازدهار ..

سألته بحنان الأمهات عن حاله ، فقال لها متحفظًا :

ـ الحمد لله يا عمتى .

سألته :

ـ كم ستمكث فى القرية ؟

ـ أسبوعان .

ـ أهلا بك وسهلاً .

ـ أهلاً بك يا عمتى .

ـ هل لديك وقت لنا ؟

ـ وقتى ملك لكم ، فقط سأتردد على المركز ، ثم أسيوط ..

ـ لماذا ؟ لعل الأمر خير .

ـ خير إن شاء الله ، سأستخرج جواز سفر لليبيا .

تنبهت (أحلام) التى كانت تستمع إليه ..

وقالت بدون وعى :

ـ كلكم تهاجرون .. لماذا ؟

ابتسم (جابر) كأنه يعتذر ، وقال :

ـ هذا عمل تبع الشركة .

ـ ألا يوجد غيرك ؟

ـ لقد تدربت على نوع جديد من الأونـاش ، ولا يوجـد غيرى يجيد العمـل على هـذا الونش ، وقـد أرسلوا الونش إلى ليبيا ، ويجب أن ألحق به .

ـ أى بلد فى ليبيا ؟

ـ سأذهب إلى طرابلس ، ومنها سأعرف .

برغمها شعرت أن فرحتها مبتسرة ..

وقالت أم (أحلام) بحنان :

ـ المهم أن نراك طوال الأسبوعين وقبل سفرك .

ـ فى خدمتك دائمًا يا عمتى .

وانصرف (جابر) ..

قالت أم (أحلام) :

ـ إنه شاب مهذب ، يعرف الأصول فى زمن ضاع فيه كل شىء .

وعاشت (أحلام) أسبوعين فى حيوية ..

عادت البسمة إليها ..

عاد البريق إلى عينيها ..

انتعشت روحها الذابلة ..

انحسر الضعف الذى كان يسرى فى أوصالها ..

ظهرت لمسات (جابر) فى الحديقة ..

لمع الورق الأخضر ..

اختفت خيوط العنكبوت ، والأعشاب الضارة .

عاد النحل ليطن من جديد ..

بعثت الحياة فى خلايا النحل ..

كانت (أحلام) تساعده فى كل أعماله ..

وغردت كثيرًا وهى تتحدث معه ..

استمعت إلى حياته فى الإسكندرية ..

وجاء يوم الفراق ..

صافح أم (أحلام) وتمنى لها الصحة ..

دفعت إليه بكيس يحتوى « دجاجتين » ..

أعطته (أحلام) مصحفًا صغيرًا ليصونه فى الغربة ..

وقالت له بحياء :

ـ اكتب لنا لنعرف أخبارك .

وذهب ..

أطلت عليه من النافذة إلى أن اختفى وذهب .. بعيدًا .. بعيدًا .. بعد الأفق ..

★ ★ ★

الفصل التاسع

(زواج أحلام)

انسابت مركبة الزمن عبر السنوات لتقطع آخر مرحلـة فـى تعليم (نبيل) ليحصل علـى الدكتوراه ، ويعود لتهب العاصفـة على القلب الكامن خلف تراكمات الأحداث والإهمال .

فذات غروب كـانت سيارة أجرة تسير علـى طريـق القريـة الزراعى ، والفلاحـون ينظرون إلى الأفنـدى الجالس فـى السيارة متسائلين ، والأفندى لا يعـيرهم اهتمامـا ، ولا يشـير لهم بالتحيـة دقق فلاح النظر فى الأفندى ، وصاح :

ـ (نبيل) بن (إبراهيم الخولى) !!

لوى (نبيل) شفته امتعاضـا ، والسـيارة تجرى حتـى توقفت أمام بيت (إبراهيم الخولى) ، والأطفال يصيحون خلف السـيارة ، وخرج (إبراهيم) وزوجته مسرعين ، وزغردت أم (نبيل) معلنـة للناس فرحتها وفخرها وطول قامتها بابنها الدكتور (نبيـل) وتعلقت (هدى) برقبة (نبيل) واحتضنته وهى تبكى شوقًا وفرحـا بأخيها الذى يفتح أبواب المستقبل الباهر ـ له ولها ـ على مصراعيه . ورحب (إبراهيم الخـولى) بابنه بصوت مرتفـع ليسمع الجميع ، وهو يكرر :

ـ « مرحبًا يا دكتور .. أهلاً يا دكتور .. نورت يا دكتور .. »

وتجمع الفلاحون والفلاحات يباركون لإبراهيم وزوجته ، ويحاولون مصافحة الدكتور (نبيل) الذى قابل محاولاتهم بفتور .

★ ★ ★

رنّت زغرودة فى صحن دار العمدة ..

وأسرعت فلاحة إلى زوجة العمدة وابنتها (أحلام) لتعلن لهما خبر قدوم الدكتور (نبيل) .

عندما استمعت (أحلام) للخبر هاجمتها مشاعر كثيرة ..

« ياه !! كأن (نبيل) هذا حقيقة وليس وهمًا .. »

أما أمها فحاولت الابتسام ، وقالت لابنتها ، وهى تتكلف الفرح :

ـ زوجك حضر ، أعدى نفسك لاستقباله .

وبدأ الاهتمام يظهر فى حركات (أحلام) ، وفتحـت دولاب ملابسـها واختارت ثوبًا ، وارتدته ، ووقفت أمام المرآة وتمنت لو معها أدوات ماكياج لتصفيف بعض اللمسات ، ولكنها كـانت جميلـة وصبوحـة وطازجة ..

وانتظرت فى المساء قدوم (نبيل) .. بدون جدوى .

واتصلت الأم بابنيها الضابط (كمال) والدكتور (شوقى) ، كما اتصلت بالحاج (توفيق) ، وطلبت من الجميع الحضور العاجل لإتمام الزفاف .

★ ★ ★

بعد يومين حضر الرجال من أسيوط .. واجتمعوا مع الدكتور (نبيل) فى الدوار واتفقوا على أن يتم الزفاف بعد ثلاثة أيام .

ووزعت أكواب الشراب ، وزغـردت الفلاحات وتوافد الرجال للتهنئة .

كان (نبيل) يود إتمام الزفاف فى صمت ، وفى اليوم الأخير من إقامته ، قبل أن يسافر إلى القاهرة .

لكن الضابط (كمال) أصر على أن يكون الزفاف حافلاً ، وأن يدعو أعيان القرى ، وكبار رجال الداخلية .

أما (شوقى) فكان فرحًا لانتهاء معاناة (أحلام) ويريد إتمام الزفاف بسرعة وبأى شكل .

ولم يكن هناك أسعد من قلبين عجوزين ..

قلب أم (أحلام) التى شعرت بالسعادة لانتهاء رسالتها بزواج ابنتها آخر العنقود (أحلام) .

وسعادتها للأسف مختلطة بمشـاعر حزينـة « أسيانة » لفراق ابنتها . وخوف رهيب من الفراغ القادم ، فراغ البيت من زوجها ومن الأولاد .. ومن ابنتها حبيبة القلب ، ورفيقة الأيام .

والقلب العجوز الثانى .. قلب الحاج (توفيق) ، فهو يعتبر (أحلام) ابنته وابنة صديق عمره ، ووديعة بين يديه عليه أن يصونها ، ولذلك فإنه قال لـ (نبيل) :

- يا دكتور .. إنى أهديك (أحـلام) ، وهى وديعة غالية ، عليك أن تصونها ، وانشر عليها رداء الود والرحمة .

استمع (نبيل) إليه بدهشة وتعجب .

أما (نبيل) نفسه فلم يكن فرحًا أو حزينًا .. كأنه يتفرج على فرح إنسان آخر أو كأنه يؤدى واجبا ثقيلاً ، ويتمنى أن ينتهى منه بأسرع ما يمكن لكن يرتاح ويريح الجميع .

وعندما تناقش مع (كمـال) فى مصاريف الفرح ، قال فى هدوء :

- أنا لا أريد فرحًا ، كما أن (أحلام) ورثت الكثير عن أبيها فلتنفقوا منه .

فثار (كمال) وامتعض (شـوقى) ، ولكن الحـاج (توفيق) تدخـل وانفرد بـالاثنين وأقنعهمـا بـأن العمـدة ، كـان سيدفع كـل التكاليف .

ثم جاءت عقبة أخرى ، أين يتم الزفاف ؟

لأن بيت (نبيل) غير ملائم ، و(كمال) و(شوقى) لا يحبـذان أن يتم الزفاف فى بيت العمدة ..

وتدخل الحاج (توفيق) وأقنعهما بأن الأمر لـن يزيد عن يومين أو ثلاثة وبعد ذلك سيأخذ (نبيل) زوجته إلى أسيوط أو القاهرة حسب عمله .

وكانت المفـاجأة الكبرى التى كـادت تعصف بكل شىء عندمـا أخبرهمـا (نبيل) بأنـه لن يقيم فـى أى مكـان فـى مصر ، وأنـه سيقيم فى طرابلس .

فقد تعاقدت معه الحكومة الليبيـة علـى أن يحـاضر فـى جامعـة طرابلس .

سأله (كمال) مستفسرًا :

ـ متى تعاقدوا معك ؟

قال (نبيل) بفخر :

ـ وأنا فى لندن .

ـ لكنك درست على حساب الحكومة المصرية .

ـ نعم ، ولكن ليبيا تدفع راتبًا ضخمًا بالدولار .

سأله (شوقى) بقلق :

ـ وماذا سيكون مصير أختى ؟

ـ معى بالطبع .

وتدخل (كمال) قائلاً :

ـ أرى أن تتركها هنا وتسافر ، وبعد أن تستقر ترسل لأخذها .

قال (شوقى) بسرعة :

ـ لا .. يكفى .. ترك .. يجب أن يأخذها معه .

ـ ما ترونه صائبًا سأنفذه ..

وضربت الأم على صدرها ، عندما أعلنوها بالخبر ، وأخذت تـردد معددة : « جت الحزينة تفرح مالقيتلهاش مطرح » .

لكن الحاج (توفيق) جلس إلى الأم وبهدوء وبحنـان وعطـف زائد قال :

ـ ليبيا ليست بعيدة ، وستأتى ابنتك فـى الإجـازة الصيفيـة وتمكث معك ثلاثة أشهر .

ثم قال بلهجة حاسمة :

ـ يكفى هذا لاتملئوا حياة البنت بالأحزان ، ولا تنثروا الأشواك فى طريقها .

واستطاع الحاج (توفيق) أن يطوق كل الخلافات ، ويهدئ كل النفوس . وأخيرًا لبست (أحلام) فستان الزفاف الأبيض بمساعدة (هدى) وارتفعت الدفوف ، وانطلق الرصاص إلى عنان السماء ليعلن بداية حياة جديدة لقلب (أحلام) ..

★ ★ ★

وفى الصباح ظهرت حقيقة (نبيل) العملية ، وإذ سأل عن صور لـ (أحلام) ليعد لها جواز سفر ، وسأل عن بطاقتها الشخصية .

نظر الجميع إليه كأنه قادم من كوكب آخر .

وشعر هو بالضيق منهم ، وهمس لنفسه : « يا للتخلف ! » .

وطلب من (أحلام) أن تذهب مع (هدى) « للمدينة » للتصوير .

صاحت أم (أحلام) فيه :

ـ كيف تطلب هذا من عروس فى صباحيتها ؟ .

لكن الضابط (كمال) بضغط من الحاج (توفيق) قرر أن يحل كل المشاكل وأن يصطحبهم فى المساء فى سيارته للتصوير والعودة ..

وأن يقوم بنفسه بعمل جوازات السفر لـ (هدى) و(أحلام) بعد أن يعد بطاقة شخصية لـ (أحلام) ..

وخلال ثلاثة أيام أنجز الضابط (كمال) هذه المهمة الثقيلة ..

وقرر (نبيل) أن يسافر فورًا إلى القاهرة مصطحبًا (أحلام) و(هدى) معه لينجز باقى الإجراءات ..

وفى صباح اليوم الرابع من الزفاف ..

انطلقت سيارة أجرة من بيت العمدة قاصدة القاهرة وهى تحمل (أحلام) و(هدى) و(نبيل) ..

وانفطر قلب الأم وهى تودع ابنتها وتقبلها بحرارة ، وتعيد تقبيلها وتبكى كأنها تودعها الوداع الأخير ..

وسافر الجميع ..

وتركوا الأم وحيدة فى الدار ..

تواجه الأيام الطوال ..

والفراغ الممتد ..

بقلب منفطر ..

★ ★ ★

الفصل العاشر

(العذاب فى الغربة)

فى القاهرة ، استأجر (نبيل) شقة مفروشة لفترة محدودة .

وكان يخرج صباح كل يوم منفردًا لإنهاء إجراءات السفر .

أما (أحلام) فكانت تخرج مع (هـدى) للمرور علـى محـلات الملابس وانبهرت (أحلام) من الزحام ... بل واضطربت ..

« ما هذا ؟! أين يذهب كل هؤلاء ؟! ألا يعمل أحد ؟! »

لكن (هدى) كانت متماسكة لأنها جاءت إلى القاهرة من قبل فى عدة رحلات .

وفى كل يوم كانت (هدى) تحكى لـ (نبيل) عن جولاتها مـع (أحـلام) ، وهـى تسخر من ردود أفعال (أحـلام) ، و(نبيـل) يشـاركها السـخرية والضحك . فتعلمـت (أحـلام) أن تتحفظ فـى إظهار ردود أفعالها .

بل وأصبحت تكره الخروج مـع (هدى) ، وبدأت مشــاعر التنافر تنبت فى صدرها ، وتمنت لو عادت إلى قريتها .

وعندما تحدد ميعاد السفر إلى طرابلس ، طلبت (أحلام) من (نبيل) أن يأخذها للسنترال لتتحدث إلى أمها .

ضحك (نبيل) ساخرًا ، وقال لها :

ـ أنتِ الآن زوجة ، وليكن اهتمامك لزوجك فقط ، ثم ماذا حدث لتتصلى بأمك ؟ من الأفضل أن تتصلى بها وأنتِ فى طرابلس .

صمتت (أحلام) وكتمت رغباتها وعواطفها .

وفى صباح اليوم التالى ، ركبت الطائرة للمرة الأولى ..

وقررت أن تتماسك ، ولا تظهـر أى خـوف أو انفعـال حتـى لا يسخر منها أحد .

ومرت التجربة بسلام ..

وفى طرابلس .. كان لهـم مسكن جميل مؤثث بأثـاث فـاخر ، وبدأت الحياة الزوجية لـ (أحلام) .

وفوجئت (أحلام) من اليوم الأول أن (هدى) أعلنـت نفسـها المسئولة عن البيت ، وأيّدهـا (نبيـل) فـى ذلـك . بـل وفـرض الاثنـان عليهـا أن تنـادى علـى (نبيل) بلقب الدكتـور (نبيـل) وعلى (هدى) باسم الأستاذة (هدى) .

« وأنا من أكون ؟! »

★ ★ ★

سرعان ما عملت (هدى) مدرسة بإحدى المدارس الثانوية بمدينة طرابلس ، وبالرغم من وجود مسكن لها تبع المدرسة فإنها آثرت أن تقيم مع أخيها الذى أيدها فى ذلك .

وانحصر عمل (أحلام) فى طبخ الأنواع التى تطلبها (هدى) ، وفى تنظيف المسكن ، وغسل الملابس بالغسالة ثم كيها . وكان (نبيل) دائمًا فى صف (هدى) ، ويقول لـ (أحلام) :

ـ (هدى) متعلمة ، وعاشت معى ، وتعرف ما يعجبنى .

لكن الأمر الذى أصاب (أحلام) بالحيرة ، وكان فوق إدراكها هو أن (نبيل) قدّم لها أقراص منع الحمل ، وطلب من (هدى) أن تشرح لها كيفية استعمالها .

وسألت (أحلام) بخجل وبصوت هامس :

ـ ألا تريد أطفالاً ؟!

أجابها (نبيل) بصوت حاسم :

ـ نحن هنا مشغولون ، ولا وقت لدينا نعطيه للأطفال .

قالت (أحلام) بعفوية :

ـ أنا التى ستربيهم .

قال (نبيل) ساخرًا :

ـ أنتِ ؟! أنتِ محتاجة لإعادة تربية .

ثارت مشاعرها ثورة ذابت فى الدموع التى انسابت بغزارة وباتت تتساءل عن زوجها وأخته ، ماذا يريدان منها ؟!

ولماذا تزوجها هذا الرجل ؟!

ونمت مشاعر النفور فى صدرها ، مثل حديقة الشوك .

لكن عليها بالصبر ، عليها أن تخبئ مشاعرها ..

فيومًا ما ستتزوج (هدى) ، وتصبح هى سيدة البيت ، وقد تنجح فى زرع ورود المحبة والود والصفاء فى البيت ..

هذا ما فكرت (أحلام) فيه ، وروضت نفسها على التحمل .

★ ★ ★

طلبت (أحلام) من (نبيل) أن يأخذها للتليفونات لتتصل بأمها كما وعدها ..

فنظر (نبيل) إليها بعمق وسألها :

ـ ماذا ستقولين لها ؟

ـ لا شيء مجرد سماع صوتها والاطمئنان عليها .

ـ ستأخذك (هدى) إلى السنترال .

قالت (هدى) معترضة :

ـ وما ذنبى أنا لآخذها إلى هناك ؟!

قال (نبيل) فى حسم :

ـ ستذهبين يا (هدى) معها لأنى وعدتها ، وغدًا الجمعة سآخذكما إلى هناك .

وذهب بهما صباحًا إلى السنترال ..

وفوجئوا بالزحام الشديد من المصريين هناك .

نظر (نبيل) إلى (أحلام) وقال بضيق :

ـ هل ستنتظرين وسط هؤلاء ؟

ـ وما الضرر ؟

ـ هى مرة واحدة لأنى وعدتك وتركهما وانصرف .

وقيدت (هدى) اسم (أحلام) فى ورقة مع أحد المصريين لتأخذ دورًا .

وسألت (هدى) عن النظـام ، وأدركت أن دور (أحلام) فى المكالمة لن يكون إلا بعد الثالثة عصرًا ، فالتفتت إلى (أحلام) وقالت :

ـ انتظرى هنا ، وعند سماع اسمك تكلمى كما تشائين ، ولاتغادرى المكان حتى أعود إليك .

وتركتها وانصرفت .

شعرت (أحلام) أن (هدى) لا تتعامل معها كصديقة ، ولاتوليها أى احترام ، بل إنها تعاملها كما لو كانت أدنى منها درجات . وهتفت (أحلام) ساخطة : « بنت الخولى ! هل نسيت أن أبى هو الذى دفع مصاريف تعليمها ؟! هل نسيت أن والدها مازال يعمل خوليًا لدينا » ؟ الصبر طيب يا (أحلام) .

وجلست (أحلام) ، وسرعان ما اندمجت فى الثرثرة مع بعض النساء الموجودات ، تحدثت عن أبيها العمدة وأخويها الضابط (كمال) والدكتور (شوقى) ، ولم تنتبه إلا على من ينادى عليها ، وطالبوها بدخول كابينة التليفون .

ما أن سمعت صوت أمها ، حتى سرت رعدة فى جسدها ، وبكت بغزارة ، وأمها على الطرف الآخر كانت تبكى أكثر منها .

ـ آلو (أحلام) ... كيف حالك ؟

ـ آلو أمى ... كيف حالك ؟

بكاء الأم .. وبكاء (أحلام) ..

ـ آلو .. (أحلام) .. ما هى أخبارك مع زوجك يا روح قلبى ؟

ـ آلـو أمى .. من يقيم معكِ فى الدار ؟ وما هى أخبار الحديقـة وخلايا النحل وشجر البرتقال وحوض الورد ؟!

ـ آلـو ....

ـ آلـو ....

ـ الخط انقطع يا سنترال .

ـ يكفى هذا ... اخرجى من الكابينة .

وخرجت تجفف دموعها ، وهى تهتز من الانفعال .

ناداها الموظف : هيا عليكِ ستة دينارات ..

ـ نعم ؟

ـ نعم الله عليكِ .

نظرت (أحلام) إليه ، وهى تنهج ، وأنفاسـها ، تتقطـع ، فـالنقود مع (هدى) ، وهى لا تملك أى نقود .

قال الموظف بوجـه عـابس : هيـا يـا مصريـة .. ادفعـى لـنرى غيرك ألا ترين هذا الزحام ؟!

ارتعشت (أحلام) ، وقالت بخجل وشعف شديد :

ـ ألا يمكنك الانتظار ، فالنقود مع أخت زوجى وستأتى بعد قليل صاح الموظف بغلظة :

ـ نعم ؟! على من تضحكين ؟! أنا أفهمكم جيدًا أيها المصريون . دعى أحدهم يدفع لكِ حتى تأتى أم زوجك يا مصرية .

تضـاءلت (أحـلام) ، وكـادت تسـقط فـاقدة الوعـى ، نازفـة الكبرياء وصاح الموظف مستمرًا فى غلظته : ماذا ؟! ألا تعرفيـن أحدًا فى كل هؤلاء ؟

ونظرت (أحلام) إلى الموجودين ، والدموع تتساقط .. فلم تـر إلا أشباحًا .

واستمر الموظف فى صياحه المنفر :

ـ ألا يعرف أحد هذه المصيبة ؟!

ـ أنا أعرفها .

التفتت إلى صاحب الصوت ..

ـ يا ربى (جابر) ؟!

ـ اطمئنى يا بنت عمى .

ثم التفت (جابر) إلى الرجل ، وسأله :

ـ كم تريد يا أخ ؟

ـ ستة دينارات .

أعطاه (جابر) ما يريد ، وقال له :

ـ تلطف فى طلبك ، فهذه السيدة بنت أصول .

خرج (جابر) مع (أحلام) ، وذهب إلى مقهى مجاور وشرب معها شرابًا مثلجًا ، وشرح لهـا أنـه جـاء ليرى أحد الأصدقـاء كـان متواعدًا معه على اللقاء فى مبنى السنترال ، وكان موعده معها .

سألته : أين تعمل ؟

ـ فى الزاوية .

ـ وأين تعيش ؟

ـ فى مساكن الشركة بالزاوية ، وأنتِ كيف حالك ؟

ـ فى خير حال ، الحمد لله .

ـ وزوجك الدكتور (نبيل) ؟

ـ الحمد لله ، ومعنا الأستاذة (هدى) .

وكأنها تذكرت شيئًا ، فقالت له بلوعة :

ـ يجب أن نعود حتى لا تفتقدنى (هدى) .

وعاد الاثنان إلى مبنى السنترال .

وكانت (هدى) واقفة أمام الباب حائرة ..

وتجمدت نظراتها عليهما .

نظرات نارية .. مليئة بالشك والاتهام ورأتها (أحلام) ..

وانقبض قلبها بشدة ..

تقلصت الدماء منه ، فشعرت ببرودة ..

وأدركت أنها تسقط فى هوة عميقة ..

عميقة بلا قرار ..

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

(زواج هدى)

شعرت (أحلام) أن كل شىء فيها ينزف ..

شخصيتها تنزف ..

كـرامتهـا تنزف ..

تحت قدمى (نبيل) و(هدى) ، والاثنان يحملقان فيها بعيون باردة مثل عيون السمكة الميتة ..

الاتهامات كثيرة ، ولا مبرر لها .

قال لها (نبيل) : أنتِ فلاحة متخلفة ، وتحبين فلاحًا متخلفًا مثلك .

نظرت إليه مذهولة مسترحمة ..

لكن (هدى) أجهزت عليها بقولها :

ـ أتركك لحظات وأعود لأجدك ذهبتِ مع هذا الصعلوك كـلام مهين وقاس .

آه يا أبى .. يا أمى .. يا الله ..

وسقطت فاقدة الوعى ..

قالت (هدى) بدون رحمة :

ـ هذه حركات متخلفة لن تصلح معنا .

لكن (نبيل) أمسك معصـم (أحلام) ، وأدرك أن نبضها ضعيف جدًا ، ونظر إلى عينيها فوجدهما متسعتين لا حركة فيهما ..

شعر بالخوف الشديد ، وحملها إلى السرير ..

وقال لـ (هدى) بخوف :

ـ يجب أن ننقلها للمستشفى .

ـ لماذا ؟! بعد قليل ستجدها مثل الجن ، إنها تتظاهر لكسب العطف عليها ..

وأفاق الاثنان على صوت الجرس الذى أصابهما بالذعر ..

ثم تماسك (نبيل) وتحرك ، وفتح الباب فوجد (جابر) أمامه ..

صاح (نبيل) غاضبًا : أنت ؟!

ثم أغلق الباب فى وجهه ..

لكن جرس الباب ما زال يرن بإصرار .. ترن .. ترررن ..

وفتح (نبيل) الباب ، وقال غاضبًا :

ـ ماذا تريد أيها الوقح ؟!

ـ أرجوك يا دكتور (نبيل) نحن أهل .. دعنى أشرح لك .

ـ لا أريد منك شيئًا سوى أن تبتعـد مـن هنـا ، وإلا نـاديت لـك الحرس ، وعملت على إبعادك من ليبيا نهائيًا .

ـ يا دكتور (نبيل) نحن أهل ، وعمومًا إنى أحـذرك من عمل أى شىء مع مدام (أحلام) ، وسأرسل لأخيها الضـابط (كمـال) أعلمه بما يحدث لأخته .

ـ اخرس يا كلب ، واذهب من هنا .

وصفق الباب فى وجهه ..

وانصرف (جابر) ..

والمدهش أنه لم يشعر بغضب من الدكتور (نبيل) لأن الإشفاق والخوف على (أحلام) ، كان هو الشعور المسيطر عليه ، فلم يشعر بشىء آخر بل كان يفيض حنينًا وشفقة على (أحلام) .

★ ★ ★

اضطر (نبيل) لأن يأخذ (أحلام) إلى الطبيـب لأنـه لـم يظهـر أى تحسن عليها وقـد خـاف (نبيـل) أن تمـوت فيطـارده أخوهـا الشرس (كمال) .

بعد الكشف قال الطبيب :

ـ إن زوجتك تعرضت لصدمة عصبية ، وهى محتاجـة للراحـة والهدوء .

وكتب لها بعض الأدوية الخاصة .

واطمأن (نبيل) بعض الشىء ، وحرص على إعطائها الدواء ، وتقديم الطعام إليها ، وإبعاد (هدى) عنها حتى تماثلت للشفاء .

تماثل الجسد للشفاء ..

لكن ما حدث فى شخصيتها شىء غريب .

فإن الانهيار الذى حدث لها ، قد مزّق أثواب الخجل والاستكانة .

فقررت أن تمسك حياتها بيدها ، وأن تقاوم بشكل أو بآخر .

وأدركت أن (نبيل) و(هدى) يتعمدان تفكيك شخصيتها بالإساءة الدائمة ، والانتقاد لكل تصرفاتها .

★ ★ ★

وقعت أحداث جديدة شغلت (أحلام) نوعًا ما .

فقد فوجئت باثنين يأتيان لزيارتهم ذات مساء ..

دكتور فى الجامعة شاب زميل للدكتور (نبيل) واسمه (فهمى) وأخته (أمانى) مهندسة وتقيم معه .

كان الاهتمام شديدًا بهذه الزيارة ، خاصة (هدى) التى تزينت ، ووقفت كثيرًا أمام المرآة ، وعملت بهمة شديدة فى المطبخ للمرة الأولى ، وشاركت فى تنظيف المسكن ، ووضعت لمسات جميلة فى أنحائه .

ولاحظت (أحلام) أن زوجها (نبيل) يقطر أدبًا وظرفًا ويكاد يسيل عذوبة «يا الله كيف غير جلده هكذا ؟»

وأيضًا (هدى) .. إنها تتكلف الرقة الشديدة ، وصوتها .. ما هذا التكلف ؟!

كيف استطاعت أن تتقن هذا الصوت الخافت واضح النبرات .

أدركت بغريزتها أن الدكتور (فهمى) هذا مرشح للزواج من (هدى) .

ولكنها لم تدرك أن المهندسة (أمانى) أيضًا مرشحة للزواج من زوجها (نبيل) ، وقد لاحظت أن (نبيل) يترك الفرصة

والمكان لتكون (هدى) بجانب (فهمى) وخصص نفسه لإشغال (أمانى) والتحدث معها فى أى شىء .

شعرت بنفور غريزى من الضيفين ، فآثرت الانشغال بإعداد العشاء للجميع ، وانزوت حتى انصرف الضيفان .

واختلست (أحلام) النظر إلى (هدى) ، فرأت الحبور والسعادة يلمعان فى عينيها ، بل قد لاحظت أن وجهها تغير كأن العواطف تعيد ترتيب الوجه .

ولم تخطئ غريزة (أحلام) ، فقد تطورت العلاقة بسرعة مذهلة وتم زواج (هدى) من الدكتور (فهمى) ، وانتقلت إلى شقته .

وشعرت (أحلام) براحة ، فها هى تصبح سيدة بيتها للمرة الأولى .

وقررت أن تبذل جهدها لإنجاح زواجها ، وتتودد إلى (نبيل) .

ففى اليوم التالى أعدت الأطعمة التى تعرف أن (نبيل) يحبها ، وارتدت فستانًا جميلاً ، وأعدت نفسها لانتظاره ..

وجاء (نبيل) ، ورآها منطلقة مرحبة له ، ورأى المائدة معدة .

نظر لها نظرات مملوءة بالشك ، وقال لها ساخرًا :

ـ هل أنتِ سعيدة لأن (هدى) تركت المنزل ؟

قالت له مصححة :

ـ أنا سعيدة لأنها تزوجت .

ـ لا ، أنتِ سعيدة لأنك تخلصت منها .

ـ دعنا من ذلك ، ربنا يوفقها ، وهيا إلى الغداء .

ـ أصبحتِ مراوغة ، هذا شيء جديد أكتشفه فيكِ .

ـ هل ستغير ملابسك أم ستعود مرة أخرى للكلية ؟

ـ سأعود للكلية .

ـ سأعد لك الشاى فورًا .

وعندما قدمت الشاى له ، أبدى تقززه من الطعم .

قالت له : فى المرة القادمة ستجده أفضل إن شاء الله .

وفى المساء تأخر زوجها كثيرًا فى الحضور ، بل أصبح هذا حاله يوميًا ، يذهب إلى بيت (هدى) ، وينشغل هناك ولا يعود إلا متأخرًا .

وعند حضوره يحاول أن يثير أعصابها .

وهى تتحمل ، وتغير المواضيع ..

وعند تكرار التصرفات والتأخير وإثارة الأعصاب ..

أيقنت (أحلام) أن هنـاك مخططًا للطـلاق ، فلمـاذا تزوجهـا ؟ ولماذا لا يكون صريحًا ؟

أسئلة تراقصت فى ذهن (أحلام) ، وهى تعرف الإجابة .

تعرف أن (نبيل) تزوجها كرد للجميل ..

وتعرف أن أباهـا ساعده ، وهـو ضعيـف محتـاج و(نبيـل) لا يطلقها خوفًا من مؤخر الصداق ..

وهو لا يريد الإنجاب منها ليطلقها بهدوء .

الحقيقة واضحة سافرة معلنة عن نفسها ..

وأدركت أن هناك مخططًا ، عندما زارتها (هدى) وقالت لها :

ـ الدكتور (نبيل) يخرج كل يوم مع المهندسة (أمانى) .

وعندما يأتى إلينا يجلس معها طوال الوقت يتحدثـان ويتحدثـان ومرة أخرى قالت لها :

ـ أنتِ يا (أحلام) لا حياة لكِ بعيدًا عن القرية وعن والدتك التى تحتاج إليكِ وتحتاجين إليها .

ومرة ثالثة قالت لها :

ـ ماذا استفدت من الغُربة ، أنا أكون ثروة ، و(نبيل) يكون ثروة ، وأنت تبددين ثروتك الموجودة فى مصر .

كانت تدس هذه الأقوال فى وسط ثرثرتها وكأنها لا تعنى شيئًا ولكنها حريصة على أن تقول لها مثله فى كل مناسبة مع تغليف الكلمات بالشفقة والعطف والمصلحة .

كأنها تسقيها السم فى العسل ..

لكن المهم أن يصل سم الكلمات ..

قطرة ... قطرة ..

★ ★ ★

الفصل الثانى عشر

(نجمة الحفل)

استمرت (هدى) فى دس كلماتها المسمومة لـ (أحلام) وقالت لها : كيف تصبرين على أن تكونى أرضًا بلا ثمار ؟

و(أحلام) تستمع إليها بدون تعليق ، ولكنها أدركت أبعاد المؤامرة . وبالرغم من شعورها أن (نبيل) هذا لا يريدها ، فإنها قررت أن تقاوم لآخر لحظة لأنها تعرف نظرة المجتمع القروى الصعيدى للمرأة المطلقة ، والنظرة تكون أشد قسوة إذا حدث الطلاق بعد فترة قصيرة .

الكل يحملون المرأة السبب ، فعليها أن تقاوم إلى أن تنفد كل حيلها ولذلك عندما قال (نبيل) لها : لا ذهاب إلى السنترال مرة أخرى . أجابت بضعف : حاضر .. لكن أرجو أن تدعنى أذهب إلى القرية فى إجازة الصيف .

ـ هذا لكِ .

ـ شكرًا .

ـ أمر آخر .. لا أريد أى صلة بالولد الحقير المدعو (جابر) ..

ـ حاضر .. كل أوامرك مجابة .

نظر إليها بغيظ ، شيء ما تغير فى هذه الفلاحة .

هذه الاستكانة الماكرة كأنها مخططة ..

نظرات الضعف والحيرة لم تعد تطل من عينيهـا ، ولكن يجب أن أتخلص منها ، أو أستولى على ميراثها .

وقبل كل شيء .. يجب أن أتخلص من قيد مؤخر الصداق .

★ ★ ★

تعايشت (أحلام) مع جو البيت المشحون بالتوتر بطريقة هادئة ، بل ما كـان يحدث جعل عقلها ينمو ، ووعيها يتفتح . إلى أن كان يوم من تلك الأيام التى تتفتح فيها الطبيعة ، وتخضر الأشجار ، ويصبح النسيم عليلاً محملاً بروائح جميلة ..

فى نهاية الربيع ، وبداية الصيف ، تحتفل كلية التربية بيوم لها يخرج الطلاب والأساتذة وزوجاتهم والعاملون إلى الغابة الكبيرة الموجودة بالقرب منهم ، ويشوون الخراف فى الهواء الطلق .

والجميع يحضرون لابسين ثيابهم الوطنية ، خاصة أن الدكاترة من جنسيات متعددة « ليبيا ـ مصر ـ الهند ـ باكستان ـ تونس ـ سوريا ـ فلسطين » ويأتى الليبيون فى البدل العربية

الموشاة التى تشبه ملابس المماليك .. والنساء الهنديات يلبسن السارى .. والتونسيات ينافسن الليبيات فى البدلة العربية ، لكن المرأة الليبية تتفوق بكمية الذهب التى تتحلى بها ، ويصبح جو الاحتفال جو كرنفال ، الجميع يأكلون ويشربون ويضحكون ويلعبون ..

هذا ما شرحه الدكتور (نبيل) لـ (أحلام) التى استمعت إليه باهتمام وسألته :

ـ هل سأحضر هذا الاحتفال ؟

ـ نعم يجب أن تحضرى .

ـ اذهب أنت ، وسأحضر أنا بعد قليل .

ـ هل تعرفين المكان ؟

ـ نعم .

انصرف (نبيل) ، فهو لا يحب أن يذهب معها .

أما (أحلام) فقد قررت أن تعد له مفاجأة تسعده ، وتجعله يفخر بها فهى أيضًا تستطيع منافسة الليبيات .

وأخرجت كل ذهبها وهو كثير ، وأخرجت (جلابيتها) الفلاحى الموشاة (بالترتر) .

ولبست فى أذنها (حلق مخرطة) كبيرًا ، وغوايش ذهبية وعقدًا و« حردة بأوية »[1] ملونة على شعرها المفروق من المنتصف ، وشُقة حرير وشبشب جلدى بوردة ، وخلخال فضة فى الساقين .

وذهبت إلى الحفل ..

انكمش (نبيل) عندما رآها ، وشعر بثورة عارمة فى داخله ، وكأنها تكشف نشأته التى يخجل منها بدون مبرر .

وأشار دكتور سورى إليها ، وقال ضاحكًا : يا ربى .. (شو) هذه الفلاحة المصرية ، (قيش) هى جميلة ؟! (هلدى) تستحق جائزة الكلية .

حملقت النساء الليبيات فيها ، وقالت إحداهن :

ـ المصريات لا تنتهى ألاعيبهن ..

أما الهنديات فإنهن تجمعن حولها ، وأخذن يتحسسن كل شىء ويسألنها بالإنجليزية ، وهى تضحك لأنها لا تعرف شيئًا من كلامهن .

وكانت المفاجأة ، فقد تم اختيارها نجمة الحفل .

وقدموا لها كأسًا ، وطالبوها بالكلام .

أمسكت الكأس ورفعتها قائلة :

ـ أنا زوجة الدكتور (نبيل) ، وهو الذى اختار لى هذا الزى ، ولذلك هو الذى يستحق الكأس

(1) منديل ملون ومحلى بالترتر لربط الشعر عند الفلاحات .

شعر (نبيل) بالانسحاق والخجل ، وكاد أن يجرى هاربًا عندما طالبه الجميع بالحضور للوقوف بجانب زوجته ، ولكنه رفض بإصرار وعناد .

وسأله أحدهم ضاحكًا : لماذا لم تلبس جلباب فلاح ولبدة وبُلغة لكى تكونا ثنائيًّا ناجحًا ؟

وصلت (أحلام) إلى قمة السعادة ، ولم تدر أن (نبيل) سقط فى هوة التعاسة إلا وهما فى المسكن ..

فقد فوجئت بـ (نبيل) يثور ثورة عارمة وقد تخلى عن بروده ، وقال لها :

ـ ماذا كنتِ تقصدين ؟! هل تريدين تذكير الجميع أنى تزوجت فلاحة ؟ هل يجب أن تعلنى عن أصلك ؟

ـ ماذا به أصلى ..؟ أنا أتشرف به .

ـ أنتِ غبية متخلفة .

ـ أنت دعى مغرور .. أنا كنت أريد إسعادك .

ـ أنتِ أصل شقائى .

ـ بل أنت أصل بلائى .

انفجر (نبيل) وصفعها بقوة ألقتها أرضًا ..

قالت له : أنت تصفع سيدتك .. طلقنى .. لن أعيش معك بعد اليوم .

قال ساخرًا : أنا لا أريد العيش معكِ من البداية .

ـ ومن الذى أجبرك ؟

ـ رد الجميل .. ومؤخر الصداق .

ـ وهل رد الجميل يكون بالإهانة وإساءة العشرة ؟

ـ لقد أخطأت ، ويجب أن أصحح خطئى .

ـ طلقنى .

ـ أبرئينى من كل شىء ، وأنا أطلقك فورًا .

ـ سأبرئك .

وفوجئت (أحلام) بأنه قدم لها ورقة مكتوبة جاهزة ، وقال لها :

ـ وقعى على هذه الورقة .

ـ ماذا يوجد فيها ؟

ـ اقرئيها .. لا أريد منك شيئًا سـوى التنـازل عن حقوقك المترتبة على الطلاق .

فليكن هذا .

وقعت على الورقة ..

وقال لها ، وهو يشعر براحة كبيرة :

ـ أنتِ طالق هيا غادرى المنزل .

تنبهت (أحلام) لشىء ، وسألت :

ـ إلى أين ؟! وكيف أسافر ؟!

ـ هذا ليس شأنى .

ـ أنا قريبتك قبل أن أكون زوجتك .

ـ هذا شىء لا يعنينى .. خذى ملابسك ، وغادرى المنزل ..

ـ كيف ؟! وإلى أين ؟!

ـ لا يهمنى غـادرى المنزل فـورًا ، وستصل ورقتك عن طريق السفارة .

ـ السفارة ؟

برقت الكلمة فى ذهنها .. ستذهب إلى السـفارة ، وتحكى لهـم ما حدث ، وهم يتصرفون .

وضعت حقائبها فى سيارة أجرة ، وقالت للسائق :

ـ السفارة المصرية .

وصلت السيارة إلى مكان السفارة ، وفوجئت (أحـلام) بزحـام شديد من العمال المصريين ، سألت أحدهم : أريد السفير ..

نظر إليها العامل ، ولاحظ شحوبها وانفعالها وحقائبها ، ولكنه قال لها :

ـ السفير لا يقابلنا ... أنتِ محتاجة لموظف مختص، ما هى مشكلتك ؟

وقصت عليه بضعف ، واستمع الرجل بتأثر ، وقال لها :

ـ هل معكِ تصريح مغادرة ؟ هل معك باسبور ؟

هل معك نقود ؟

ـ ماذا ؟!

ـ أين أوراقك ؟

ـ ماذا ؟!

ـ لابد من جواز سفرك ، وموافقة زوجك على المغادرة .. ونقود لقطع تذكرة طيران .

ـ لا يوجد أى شىء .

تدفقت الدموع من عينيها ..

يا للعجز !! يا للضعف !!

يا للهوان فى بلاد الغربة يا (أحلام) !!

الدموع تنهمر ..

والناس أشباح ..

و(أحلام) تتهاوى ..

تتهاوى ..

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

(العــــــودة)

السحب البيضــاء مثـل قطـن نـاصع البيـاض ، منتشـر فـى السماء ، والطائرة مندفعة فى طريقها للقاهرة .

والذكريات تتدافع فى مخيلة (أحلام) .

فقد سندتها يد عامل مصرى طيب عندما تهاوت ، ومن الواضح أنه أخذها إلى بيتـه ، وأحاطت بها زوجتـه وابنتـه ، وعندمـا أفاقت ذكرت لهم اسم (جابر) ومكان عمله فى الزاوية تبع شركة المقاولات وذهب الرجل بنفسه ، وأحضر (جابر) معه ..

أزاح بابتسامته السمحة كل الغيوم ..

وكلماته الطيبة كانت منديل رحمة يجفف كل الدموع وكأنها جـرح ينزف حكت له كل شىء عن (نبيل) وعن (هدى) وعن حياتها .

وشكر العامل وأسرته ، وأخذها إلى الخارج .

وأحضر لها عصير ليمون مثلجًا ، وقال لها :

ـ اطمئنى ستسافرين فى أقرب وقت ..

قالت ، والوضع ما زال غائمًا فى ذهنها :

ـ كيف ؟! وليس معى أى أوراق أو نقود .

قال لها بثقة :

ـ معك الله ثم (جابر) ، اليوم سأجد لـك مكانًـا تبيتين فيـه ، وغدًا يفعل الله ما يشاء .

أخذها معه إلى قرية جنزور ، واصطحبها إلى بيت صديق طيب ، قص عليه قصتها باختصار ، وبدون أن يجرح إحساسها ، وطلب منه أن يستضيفها لتنام مع زوجته بعض الأيام إلى أن يتمكن من حل مشكلتها .

وذهب إلى صديق ليبى له نفوذ ، وأخبره بالمشكلة .

وكان الحل فى أن تذهب (أحلام) إلى قسم الشرطة ، وتبلغ عن ضياع أوراقها ، وبصورة المحضر تذهب إلى السفارة المصريـة لاستخراج وثيقة سفر ، والصديق الليبى سيتولى أمر تسفيرها .

وتم كل شىء بسرعة ، وحجـز (جـابر) لهـا تذكـرة طيـارة ، وأعطـاها دينـارات ليبيـــة ، وجنيهـات مصــرية تكفـى لرحلـة عودتهـا .

وقال لها :

- كنت أتمنى أن أعود معكِ ، بل الواجب يحتم على ذلك لأطمئن على سلامتك ، ولكن للأسف ستجدين من يفسر هذا تفسيرًا خاطئًا ، وأنتِ الآن (أحلام) جديدة قوية تستطيعين مواجهة كل الأمور وحلها .

توقفت (أحلام) عن ذكرياتها على صوت المضيفة ، وهى تنبه بربط الأحزمة تأهبًا لهبوط الطائرة فى مطار القاهرة .

وبثقة شديدة نزلت (أحلام) من الطائرة ، ووضعت حقائبها على العربة الصغيرة الخاصة بالأمتعة ، واستأجرت سيارة إلى محطة أتوبيسات الصعيد ، وصلت إلى المركز عند الغروب ، واستأجرت سيارة إلى قريتها .

وعندما وقفت السيارة عند دوار العمدة ، نقدت السائق أجرته ونزلت ، ما هذا السكون العجيب الذى يسود المكان ؟!

لماذا لا ترى أى ضوء ينبعث من البيت ؟!

لماذا ترى كل النوافذ مغلقة ؟!

جاءت فلاحة ، ونظرت إليها ، وصاحت :

- من ؟! ستى (أحلام) ؟!

صافحتها (أحلام) ، وسألتها : أين أمى ؟! والبيت لماذا هو مغلق ؟!

صاحت الفلاحة : هل أنتِ وحدك ؟ أين زوجك ؟

اسمعى يا ستى (أحلام) تعالى فى بيتى ، وسأسرع لأنادى الحاج (توفيق) فهو موجود هنا فى القرية .

- وأين أمى ؟!

- سأذهب لأنادى الحاج (توفيق) .

- هل أمى مع الحاج (توفيق) ؟

جرت الفلاحة ، وتركت (أحلام) واقفة مذهولة ، تدق على الباب ، وقلبها ينفطر .

وإحساس غريب بخطر داهم يزحف نحوها ، وتقطعت أنفاسها وشعرت بضعف غريب ، كأن كل دمائها تنزف منها .

فجلست على مصطبة قريبة من البيت ..

وجاء الحاج (توفيق) ، وهو يصيح بحنان وشوق :

- أهلاً .. (أحلام) بنتى .. الحمد لله على سلامتك ، أين الدكتور (نبيل) ؟ هل تركك تأتين وحدك ؟ هل هذه أصول ؟!

لماذا لم يحدثنا تليفونيًا لانتظارك ؟!

ـ أين أمى يا حاج (توفيق) ؟

صمت قليلاً ، وارتسم الحزن على وجهه ، وقال :

ـ أمك فى أسيوط عند إخوتك .

ـ ماذا بها ؟

ـ مرض خفيف ، المهم أين المفتاح يا ولد أنت وهى ؟

ـ المفتاح عند أم (جابر) .

ـ أسرعى بإحضار المفتاح .

وعندما دخلت البيت .. انقبض قلبها « ما هذا ؟ إن البيت مهجور » سحابة من الأتربة تكسو كل شىء ..

الهجر صورته واضحة فى كل شىء ..

قال الحاج (توفيق) ، هيا نجلس فى الدوار حتى ينظفوا لك المكان .

طالب الحاج (توفيق) بإحضار الطعام لها ، وألح عليها أن تأكل .. ولاحظ أنها لا ترغب فى الكلام عن (نبيل) .

وطلب من امرأتين مرافقة (أحلام) فى البيت .

وفى صباح اليوم التالى حضر (إبراهيم الخولى) وزوجته .

قالت أم (نبيل) :

ـ جئنا من المساء ، لكن الحاج (توفيق) طلب منا الانصراف لأنك مرهقة وترغبين فى النوم .

أين ابنى الدكتور (نبيل) ، وابنتى الأبلة (هدى) ؟

قالت (أحلام) ، وهى تتماسك :

ـ (هدى) تزوجت من دكتور زميل لأخيها .

قال (إبراهيم الخولى) بحزن :

ـ لم يخبرنا أحد ، حتى الرسائل لا أحد يرسل لنا ، كأننا غير موجودين .

سألت أم (نبيل) :

ـ أين الدكتور (نبيل) ؟

ـ إنه بخير وموجود فى طرابلس .

صوت (إبراهيم) ضعيف ، وهو يسأل كأنه يعتذر :

ـ ولماذا لم يحضر معكِ ؟

بهدوء غريب وصوت واضح قوى ، قالت (أحلام) :

ـ (نبيل) طلقنى .

ضربت أمه صدرها بيدها ، وقالت : يا مصيبتى !

تمتم أبوه ، وهو يزفر : خيّبه الله ! لكن ما السبب ؟

قالت (أحلام) بنفس الهدوء : لن أحكى شيئًا ، وأرجو أن تتركانى الآن .

وانصرف الأبوان ..

وسألها الحاج (توفيق) عن حقيقة الأمر ..

فقالت له : سأحكى لك فى الوقت المناسب .

وعندما انفرد الحاج (توفيق) مع (أحلام) فى الدوار .. قصت عليه بهدوء ووضوح ما حدث من (نبيل) وأخته ..

تمتم الحاج (توفيق) : لا حول ولا قوة إلا بالله .

كأن أمك الله يرحمها كانت تعرف ..

صرخت (أحلام) مرتاعة :

ـ ماذا قلت ؟! أمى ماتت .

ـ إنه أمر الله يابنتى ، كل من عليها فان ، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

انخرطت (أحلام) فى بكاء غزير ..

وأرسل الحاج (توفيق) فى طلب الماء لها ، وظل بجوارها إلى أن هدأت ، وسألته :

ـ متى حدث هذا ؟

ـ بعد حديثك التليفونى معها بيومين .

ـ يا حبيبتى يا أمى .

ـ البركة فيكِ يابنتى ، اطلبى لها الرحمة .

ـ أصبحت وحيدة فى الدنيا يا عمى .

ـ لا تقولى هذا يا (أحلام) ، الله موجود يابنتى ، وأخواك الاثنان ، وأنا فى خدمتك .

اليوم سترتاحين ، وغدًا سنذهب إلى أسيوط وربنا يجعل هذا آخر أحزانك ..

★ ★ ★

ألقت نظـرة حزينـة علـى الحديقـة .. خلايا النحل .. أحـواض الزهور .. شجر البرتقال .. الإهمال والهجر أصاب كل شىء .. وأصاب قلبها بسهم نافذ .

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

(وتمضى الأيام)

استمع الضابط (كمال) والدكتور (شوقى) إلـى قصـة (أحـلام) وثار (كمال) ثورة عارمة ، وأقسم أن يقتل (نبيل) هذا .. قليل الأصل .. وقبل كل شىء عليه أن يطرد (إبراهيـم الخولـى) والـد (نبيل) من الأرض ، لكن (شوقى) استمع بهدوء ، وتمتم :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنك قاسيت كثيرًا يا أختى ، أرجو أن يعوضك الله خيرًا ..

واتفق الأخوان على أن تقيم (أحلام) مع أخيها الأكبر الضابط (كمال) ، أما رغبتها هى الحقيقية فكانت تود أن تقيم فى الـدور الخاص بها أو عند الدكتور (شوقى) .

وبعد قليل عرفت أن الدور الخاص بهـا ، قـد حولّـه (شـوقى) بالاتفاق مع (كمال) إلـى مستشـفى خـاص لهمـا كأنهمـا ورثـاها وهى حية .

وفى البداية عندما حاول كل منهما أن يستأثر بها لتقيم عنـده شعرت بامتنان لأخويها .

ولكنها سرعان ما اكتشفت حقيقة غريبة ..

حقيقـة قاسية ..

حقيقة مؤلمة ..

وهى أن كلاً منهما يريدها مديرة لمنزله ومربية لأطفاله .

فالدكتور (شوقى) متزوج من دكتورة ، والاثنان مشغولان فى المستشفى الخاص ، والضابط (كمال) متزوج من موظفة ولديهما ثلاثة أولاد يحتاجون إلى رعاية ، وهذا ما رجّح كفته .

وفاز (كمال) فى الصراع لأنه الأكبر والأشرس .

وبدأت (أحلام) حياة جديدة غريبة ، وتنفست بعمق وهى تستوعب هذه الحقائق .

على الإنسان أن يصارع فى الحياة ليفوز بحقوقه المشروعة ، وعليها أن توطن نفسها للاستفادة من هذا الدور الذى فُرض عليها .

عليها أن تتكيف وتستوعب أساليب الحياة المختلفة .

ستلاحظ ما يحدث وتستوعب أساليب الحياة المختلفة ، ستعمل فى البيت بجد بدلاً من الخمول والكسل والانتظار .

وحرصت على صداقة زوجة أخيها والتقرب منها .

وعنيت بالأولاد ، وجذبت قلوبهم إليها بقص الحكايات لهم وأخذت تقرأ القصص لتحكيها لهم ، وهذا دفعها لأن تقرأ كل ما يقع تحت يدها .

كما حرصت على أن تتواجد مع الدكتورة زوجة أخيها لتكتسب منها بعض المعارف الطبية .

واستطاعت أن تتواءم مع حياتها الجديدة .

عمدت إلى الصلاة وحفظ القرآن ، واتجهت إلى الله تتعبد له صابرة .. قانتة ، وتذاكر مع أولاد أخيها وتتابع واجباتهم ، وتجلس أمام التلفاز تتعلم أصول الطهى وتربية الأطفال والعناية بالصحة وقصص النجاح والتحدى .

وبالرغم من ذلك كانت تشعر أن الأيام لا لون لها .

وأنها فاقدة الهدف .

وفى المرات القليلة التى اصطحب أخوها زوجته إلى السينما أو إلى إحدى الزيارات الاجتماعية لم يصطحبها معه .

كانت تجلس لرعاية الأطفال .

ولم يفكر أحـــد فـى أن يشـترى لهـا ملابس جديدة ؛ اعتمـادًا على الملابس الموجودة معها ، وأنها غير مطالبة بالخروج .

وأيضًا لا أحد يعطيها نقودًا لتتصرف منها .

راودتها نفسها على أن تحادث الحاج (توفيق) فى أمر الميراث لكن ما الفائدة من ذلك ؟

★ ★ ★

الحاج (توفيق) أصبح المشرف على الزراعة مؤقتًا ، فقد طرد (كمال) (إبراهيم الخولى) ، وكلف الحاج (توفيق) بأن يؤجر الأرض بالمشاركة على المحصول ، ولذلك كان يتردد عليهم من حين إلى حين .. وكانت هى تأنس إليه ، ويعطيها الحاج نقودًا دون علم أحد ويراقب حالها صامتًا ، وهو يضمر أن يبحث لها عن زوج مناسب لتخرج من حالة انكسار الروح التى تعيشها .

ما زال يذكر وصية أبيها له .

ومرت الأيام لتصنع الشهور ..

وطلبت (أحلام) من أخيها (كمال) أن يستخرج لها بطاقة شخصية بدل فاقد فوعدها خيرًا ولم يفعل شيئًا .

اقترب عيد الأضحى ..

وبدأ الاستعداد له ، فطلبت (أحلام) من الحاج (توفيق) أن يصطحبها إلى قريتها لتزور والديها وتقرأ لهما الفاتحة ، وبالرغم من اعتراض (كمال) ، فإنها أصرت على الذهاب .. وفوجئ (كمال) بتصميمها وعنادها ونظرة القوة فى عينيها فوافق وذهبت إلى القرية .

كم تشعر براحة فى بلدتها !

إنها تحب رائحة الحقول ، والشمس الساطعة التى تضحك لهم ضحكات نورانية كل صباح ، وتحب همس النسيم للزرع الأخضر .

تحب النخيل والبلح الأخضر « الرامخ » والبلح الأحمر والأصفر وتعشق شجر الجميز وشجر التوت والصفصاف والنبق .

فى بلدتها حياة كاملة مليئة بالعواطف الزاخرة والألوان البهيجة ، وكم تحب بيتها بيت العمدة والدوار الكبير والحديقة !

هذا هو المكان الذى ارتاحت فيه ، وتمنت لو سُمح لها بالإقامة فى البيت للعناية بالحديقة وأشجار البرتقال وأحواض الزهور وخلايا النحل .

بل وتمنت لو سمحوا لها بالإشراف على حقول والدها بدلاً من تأجيرها للغير بالمشاركة .

لكن من سيسمح لها وهى امرأة مطلقة بالإقامة وحدها فى قرية فى الصعيد ؟

بالتأكيد سيهاجمها اللصوص ، بل وقد يقتلونها .

وحضرت الفلاحات عندما عرفن بحضورها .

وأشرفت على تنظيف البيت .. وأشعلت البخور فيه ..

وأشعلت الفرن ، وخبزت القرص والكعك والفطير .

وأرسلت إلى البندر لشراء الفاكهة .

وصامت يوم الوقفة ، وأفطرت فى المغرب مع عدد من الفلاحات .

وقضت ليلة رائعة معهن ، وهن يثرثرن ويهرجن ، ورقصت بعض الفلاحات على إيقاع طبلة وحشية .

وغنت للحبيب المجهول .. تدعوه للحضور ..

وفى الصباح الباكر جاء الحاج (توفيق) بعد صلاة العيد ، واصطحبها مع بعض الفلاحات لزيارة والديها .

وجدت راحة غريبة عند زيارة القبر .

وبكت كثيرًا ، وهى تشكو لأمها ولأبيها عن تصاريف الأيام ..

وتركها الحاج (توفيق) إلى أن هدأت .

وطلب منها أن تقرأ الفاتحة وتطلب الغفران لوالديها كما ربياها صغيرة .

ووزعت القرص والكعك والفطير رحمة ونورًا على روحيهما وفى طريقها للانصراف ..

سمعت صوتًا غريبًا ..

ينادى أعماقها ..

ويهز أوتار قلبها بعنف ..

الصـوت ينادى ..

أحـــــــــلام ..

من ينادى ....؟

من المجهول ..

أو من غياهب الحلم ..

بعـد المغـرب ..

و(أحلام) تنظر إليه من النافذة ..

إنه هو .. هو فارسها الذى سيحقق لها أمنية الوجود فى دارها .

وبعد صلاة المغرب حضر (جـابر) وجلـس فـى الـدوار مـع الحاج (توفيق) ، سأله الحاج :

ـ متى ستتزوج ؟

صمت (جابر) كأنـه فوجئ بالسؤال ، ثم قال خجلاً :

ـ يسهل ربنا يا حاج .

وصمـت الحـاج (توفيق) كأنـه يفكر فـى أمر ويقلب الـرأى فيه ..

ودخلت (أحلام) الدوار ، وألقت السلام ، ورحبت بـ (جابر) .

وجلست بالقرب من الحاج (توفيق) وسألت (جابر) :

ـ كم يوما ستمكث ؟

ـ شهر .

ـ حسنًا أريدك أن تستخرج لى بطاقة شخصية بدل فاقد .

ـ هذا يستدعى وجودك فى القرية إلى بعد إجازة العيد .

فنظـرت (أحـلام) إلـى الحـاج (تـوفيـق) ، وقـالـت لـه برجـاء :

ـ ما رأيك يا عمى ؟

ابتسم الحاج (توفيق) بسماحة ، وقال : لا مانع ..

لمع السرور فى عينى (أحلام) وعينى (جابر) ..

وراقبهمـا الرجـل العجــوز مبتسـمًا ، وخـاطر يـدور فـى رأســه .

« إذن تفكـيرى صـح .. لكـن هنـاك (كمـال) و(شـوقى) ما رأيهما ؟! هل سيوافقان ؟ ولِمَ لا ؟ »

قالت (أحلام) لـ (جابر) :

ـ هل رأيت الحديقة وخلايا النحل وأحواض الورد وشجر البرتقال ؟

ـ لا .

قالت (أحلام) بحزن :

ـ لقد قتلها الإهمال .

ـ تحتاج إلى رعاية دائمة وتواجد مستمر .

ـ ما رأيك لو تعمل شيئًا غدًا ؟

ـ وبعد ذلك تتركها للإهمال مرة أخرى ؟!

ـ فلنبدأ غدًا ، ولنترك الباقى للأيام .

فى صباح اليوم التالى ..

حضر (جابر) ، وبدأ فى تقليب الأرض ، وأحضرت (أحلام) الشاى والبسكوت له ..

نظر إليها ، يراها كبسمة الصباح ..

وهتف قلبه إنها شمس مشرقة فى الصباح وقمر مضىء فى المساء ..

تناول صينية الشاى منها وهو يبتسم ..

قالت له بحبور :

ـ لماذا تبتسم ؟

ـ سعيد بك يا بنت عمى .. كم أحب أن أراكِ هكذا دائمًا !

« وأنا كم أحب أن أكون هكذا .. »

صمتت وقد تلون وجهها بلون الخجل كأنها عذراء رقيقة .

ثم قالت له :

ـ متى ستذهب لعمل البطاقة ؟

ـ فى أول يوم عمل سأصحبك إلى البندر على أن يكون معنا عزول .

ـ عزول ؟!

ـ نعم لا بد من وجود طرف ثالث ، هل نسيت تقاليد الصعيد ؟

ـ ومن تحب أن يكون العزول ؟

ـ يا ريت الحاج (توفيق) ، حتى نقطع الألسنة .. صمتت ..

مدّ الكوب إليها ، وقال لها وهو يذوب خجلاً :

ـ ما رأيك لو نقطع الألسنة بشكل رسمى ؟

زغرد قلبها فرحًا ..

« يا الله ما أسهل الفرح .. إنه بين أيدينا .. »

قالت له بخجل أنثوى محبب :

ـ ماذا تقصد ؟

استجمع قوته ، وقال : نتزوج ..

قال قلبها : « يا ليت »

وصمتت قليلاً ، ثم منحته ابتسامة عاشقة ، وقالت هامسة :

ـ كلّم أخى (كمال) .

ـ أخاف من رفضه .

وهنا ثارت دماؤها ، وتيقظت أعصابها .

لن تسمح لأحد بأن يمنع عنها الفرح والضوء وحقها فى الحياة .

وقالت له : أنت رجل .. لا تخف .. ومهد الطريق مع الحاج (توفيق) .

تصلبت ملامحه وقال بقوة : بكِ سأتحدى العالم كله ، المهم أن أسمعها صريحةً منك أنك موافقة .

ـ وكتاب الله موافقة .

انفجر ضحكاً حتى دمعت عيناه .

ولم يشعر بسعادة أبدًا مثل شعوره الآن ، وفى هذه اللحظة . وعندما جاء الحاج (توفيق) ..

جلس (جابر) إليه صامتًا بعض الوقت ..

ثم قال له : عمى الحاج (توفيق) ، هل تسمح لى بأن أحدثك فى موضوع مهم ؟

بلماحية شديدة أدرك الحاج (توفيق) ما يريد (جابر) ، ولكنه كتم معرفته وقال متغافلاً كأنه يمثل دورًا :

ـ خيرًا يابنى .

ـ ما رأيك فىّ ؟

ـ ولد « خايب » لم يستطع الزواج حتى الآن .

شعر (جابر) بالغيظ من كلمة « خايب » ، وقال له :

ـ أنا الآن شاب مقتدر ، وأعتقد أنى طيب السلوك .

ـ هذا يؤكد أنك ولد « خايب » .

قال (جابر) محتجًا :

ـ ما هذا يا عم الحاج ؟

ـ ماذا تريد يابنى ؟

ـ أريد أن أتزوج .

ـ وماذا يمنعك ؟

صمت (جابر) ، ثم استجمع شجاعته ، وقال بسرعة :

ـ أريد أن أتزوج (أحلام) .

كاد الرجل أن يضحك ، ولكنه قرر الاستمرار فى التمثيل ، وقال :

ـ (أحلام) بنت العمدة ؟! وهل هى موافقة ؟

ـ نعـم .

ـ هل أخبرتها ؟!

صمت (جابر) ، وهو ينظر إليه محتارًا ..

فكرر الحاج (توفيق) سؤاله :

ـ هل أخبرتها ؟

هز (جابر) رأسه بالموافقة ..

ـ وهى ما رأيها ؟

ـ اسألها أنت .

ـ ألم تخبرك ؟

ـ أخبرتنى .

ـ ماذا قالت ؟

صمت (جابر) ..

ـ هل وافقت ؟

هز (جابر) رأسه بالموافقة ..

ضحك الحاج (توفيق) مثل طفل صغير ..

وفتح (جابر) فمه عن ابتسامة بلهاء ..

وقال له الحاج (توفيق) : على خيرة الله يابنى ..

ـ يعنى أنت موافق ؟

ـ طبعًا .

اندفع (جابر) إليه يحضنه ويغمره بطوفان من القبلات ..

قـال الرجـل ضاحكًا : يكفى .. يكفى .. إذا لم تكف عن القبلات فسأسحب موافقتى ..

ولمعت الدموع فى عينى (جابر) من شدة الفرح ..

وصفق الحاج (توفيق) بيديه ، فجاءت إحدى الفلاحات ، قال لها الحاج (توفيق) :

ـ دعى ستك (أحلام) تحضر لنا شرباتًا .

ثـم نظـر الحـاج (توفيق) إلـى (جـابر) وسـأله : هـل أنـت مستعد للزواج ؟

ـ كل الاستعداد .

ـ أين ستقيمان ؟

دخلت (أحلام) فى هذه اللحظة ، وقالت بصوت قوى وتصميم غريب ..

ـ هنا فى دارى .

نظر إليها الحاج (توفيق) ، وقال : تعالوا نجلس فى المنـدرة أفضل .

وفى المندرة قال الحاج (توفيق) لـ (أحلام) :

ـ إقامتك هنا بعد زواجك مخالفة للتقاليد .

قال (جابر) بثقة : سأبنى لها قصرًا ..

ـ لن أبعد عن دارى .

ـ وإخوتك ؟

ـ لقد استوليا على الدور الخاص بى فى أسيوط ، فليتركوا لـى هذه الدار فى المقابل .

التفت الحاج (توفيق) إلى (جابر) ، وسأله :

ـ ألن تعود إلى ليبيا ؟

وهنا صاحت (أحلام) بعزم وقوة نمرة طيبة :

ـ لا .

نظر (جابر) إليها وصمت ..

ـ ماذا قلت يابنى ؟

ـ سأعمل فى أرضى التى اشتريتها ، وسأنشئ مزرعة دواجن .

قالت (أحلام) بوضوح وصراحة مذهلة :

ـ وتشرف على أرضى أيضًا ونعمل منحلاً كبيرًا ونكمل مزرعة الموالح .

لاحظ الحاج (توفيق) أن (أحلام) قد فكرت فى كل شىء ، وقررت القبول بشكل واضح لأنها تقول : « نعمل ونكمل » .

ابتسم الحاج (توفيق) راضيًا ، وهمس لنفسه قائلاً :

« هذه الفتاة الرقيقة حولتها الأحداث إلى سيف باتر .. »

قال الحاج (توفيق) ، وهو ينهى المناقشة :

ـ على خيرة الله ، ويتبقى الدكتور (شوقى) والضابط (كمال) .

وأعتقد أن حضرة الضابط سيكون عقبة كبيرة ..

وأرجو ألا تكون عقبة مستحيلة ..

★ ★ ★

(النهـــاية)

قضت (أحلام) و(جابر) أيامًا ممتلئة بالهناء فى القرية ..

وذهب (جابر) معها بصحبة الحاج (توفيق) إلى المدينة لتصويرها ، وعمل بطاقة شخصية لـ (أحلام) .

وخلال ثلاثة أيام استلمت (أحلام) البطاقة .

وكأنها وجدت هويتها ..

واستردت ثقتها بنفسها ..

وعثرت على أيامها الضائعة ..

ثم سافرت إلى أسيوط مع الحاج (توفيق) على اتفاق بأن يلحقهما (جابر) بعد أسبوع لطلب يدها رسميًا .

وفوّض الحاج (توفيق) أن يهيئ له الأمر .

قال الحاج (توفيق) ضاحكًا : إنه سيخوض حقل ألغام ..

وفى أسيوط ، رأى (توفيق) أن يجلس مع شوقى أولاً ، وقال له بعد تمهيد :

ـ هل سنترك (أحلام) هكذا ؟

ـ ماذا بها ؟

ـ لا تعيش حياة طبيعية .

ـ إنها معززة مكرمة حتى يأتى نصيبها .

ـ لقد جاء نصيبها .

ـ من يكون ؟

ـ (جابر) قريبنا الذى أنقذ (أحلام) فى ليبيا .

ـ ابن الكلاّف .

ـ كلنا أولاد حواء وآدم ، وكلنا عند الله بأعمالنا ، وليس بحسبنا ونسبنا .. ثم إنه من العائلة ، وهو الآن بسم الله ما شاء الله حاصل على دبلوم زراعة ، ومعه خمسة فدادين ، ومعه رصيد فى البنك ، وسينشئ مزرعة دواجن ، وأخلاقه طيبة ..

قال (شوقى) ، وهو يميل إلى الاقتناع :

ـ بعد أن كانت متزوجة من دكتور جامعى ؟!

ـ وهل كانت سعيدة معه ؟! القلب وما يريد يابنى ، ثم إنها هى صاحبة الشأن ، والشرع يحتم سؤالها ، والرسول عليه الصلاة والسلام ينصحنا بقبول من نرضى عن دينه والشاب متدين ويعرف ربنا .

صمت (شوقى) قليلاً ، وقال :

ـ يجب أن أعرف رأيها أولاً .

ـ أحضرها الآن .

وجاءت (أحلام) ، وانفرد بها (شوقى) وسألها ، فأعلنت موافقتها بقوة صدمت (شوقى) ، وجعلته يعود إلى الحاج (توفيق) ، ويقول له :

ـ أنا موافق يا عمى الحاج .

ـ يتبقى (كمال) .

ـ ماذا به ؟

ـ أنت أدرى بـ (كمال) ، وعليك أن تحضر معى .

وحدث تحول كبير عند (شوقى) من أثر موافقة (أحلام) القوية فقال له : (أحلام) هى صاحبة الشأن .

ـ فلنحاول مع (كمال) .

وكانت الجلسة مع (كمال) عاصفة ..

فقد ثار وشتم ولعن ، وألقى بألفاظ بالغة القسوة والإهانة ..

ـ مـاذا تقول ؟! ابن الكلاّف يتزوج من بنت سيده ، تكفى تجربتنا الأولى مع قليل الأصل .

هذا بعض ما قاله (كمال) ..

وقال الحاج (توفيق) ، وهو يحاول ترويضه :

ـ الناس معادن يابنى ، والزواج توافق .

ـ وهل تتوافق (أحلام) مع (جابر) يا عمى الحاج ؟!

ـ نعم .. لماذا لا تسأل صاحبة الشأن ؟

التفت (كمال) إلى (شوقى) مستعينا به ، وقال بصوت حاد :

ـ ما رأيك يا دكتور ، هل توافق على زواج أختك من هذا الخادم ؟!

ـ (جابر) حاصل على دبلوم زراعة ، ومعه خمسة فدادين ، وسينشئ مزرعة دواجن .

ـ ماذا تقول ؟! كأنك موافق .

ـ (أحلام) هى التى ستتزوج ، والشرع يحتم سؤالها .

ـ ماذا أسمع ؟!

قال الحاج (توفيق) برفق :

ـ شرع الله يابنى .. لماذا لا تسألها ؟!

اندفع (كمال) مثل ثور هائج ، ونادى (أحلام) بغلظة وعندما جاءت (أحلام) سألها بحدة وهو واقف :

ـ هل تقبلين الزواج من ابن الكلاف ؟

لم تهتز (أحلام) ، وقالت بوضوح شديد ناتج عن وضوح الهدف :

ـ اسمه (جابر) يا أخى .

انهار (كمال) ، وجلس وهو يقول :

ـ يا إلهى ! ماذا أسمع ؟! هل أنت موافقة ؟!

ـ نعم ، وسأعيش معه فى دارنا .

ـ ماذا تقولين يا مجرمة ؟

ـ إنه حقى يا أخى ، أم تراك نسيت « الدور » الذى بناه أبى من أجلى ، وحولتماه إلى مستشفى خاص بكما ؟

سأتنازل لكما عن حقى هذا على أن تتنازلا لى عن البيت لأنـى سأعيش فى القرية .

سأعمر البيت المهجور يا أخى ..

وسأكون فى استقبالك أنت وأسرتك فى الإجازات لتقضـى وقتًا طيبًا .

ومن الممكن أن يشرف زوجى على حقولنا ..

ـ الله .. الله .. أنتِ فكرتِ فى كل شىء ؟ وهل يستطيع المحروس دفع مهر ملائم ؟

ـ عليك أن تسأله ، ولا تغال يا أخى .. فلنعمل بشرع الله .

ـ كلكم تتكلمون عن شرع الله كأنى كافر .

والتفت (كمـال) إلـى الحـاج (توفيق) ، وقـال وهو مـا زال ثائرًا :

ـ دع هذا الحيوان يأتى لمقابلتى .

ـ هل أنت موافق ؟

ـ موافق بالإكراه .

ـ هــذا أفضــل يابنـى ، علينـا أن نعمـل دائمًا علـى إسـعاد الآخـرين .

★ ★ ★

ازدهرت الحديقة ..

تفتحت الورود ..

عادت البهجة إلى بيت العمدة ..

عاد النحل يطنّ ويعطى أشهى عسل ..

وبدأت (أحلام) مع زوجها (جابر) حياة سعيدة مليئة بـالعمل والحب والإخلاص ..

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى



السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب
أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل



م. على ماهر عيد

وأخيرًا التقينا !

قال لها :

ـ عيناك هدفا لسفنى التائهة ..

قلبى جريح ضمّية بحنان ..

فلتكونى لى ظلاً آمنا ، فأنا أعيش فى هجير اليأس ..

فلتكونى لى رفقة حنان ، فأنا أعانى من الجفاف ..

أنت أغنية يغنيها المحزون فير تاح ..

قالت له :

ـ فليسقنى قلبك رحيق الحب باردا رطبًا :

فأنا فى عطش دائم للحنان .

106

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

